محمد ﷺ

نبي السلام لبني الإنسان

محمد فتح الله گولن

المحتويات

الميلاد السعيد	٣
النور الخالد ومفخرة الإنسانية	٦
وخاتم الـــمنبئين عن الغيب	١٣
الجو الذي صنعه الرسول ﷺ	١٩
أنت قلبنا الخفاق وروحنا النابض	٢٢
الأمانات المقدسة	٢٦
يا براعم الأمل!	٣١
وردة المدينة المنورة	٣٢
كان ﷺ صرحا للإيمان والحركية	٣٤
سحر الكلمة عند سلطان البيان	٤٣
في ظلال القبة الخضراء	٤٨
الرحمة النبوية	٥١
التبليغ عند رسولنا الحبيب ﷺ	٥٣
قالوا عن الرسول ﷺ	٦١
صلاة جامعة	٦٢

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

إهداء مجلة حراء
بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف

إن ميلاد فخر الكائنات ميلاد للإنسانية كافة.
فقبل تشريفه كانت الدنيا في مأتم عام. وبفضله تميز
النور عن الظلام، وتحول الكون إلى كتاب يقرأ،
فكأن كل شيء قد بعث من جديد.

الميلاد السعيد

إن ميلاد فخر الكائنات يعد ميلادا جديدا للإنسانية كلها. فحتى تشريفه للدنيا لم يكن هناك فرق بين الأسود والأبيض، ولا بين الليل والنهار، ولا بين الورد والشوك. كانت الدنيا وكأنها في مأتم عام، والفوضى تسود الوجود... وبفضل النور الذي أنار به الوجود افترق الضياء عن الظلام، وانقلب الليل إلى نهار، وانقلب الكون إلى كتاب يمكن قراءته كلمة كلمة وجملة جملة وفصلا فصلا... كأن كل شيء قد بعث من جديد، ووصل إلى قيمته الحقيقية.

أجل!.. إن تشريفه الدنيا يعد حادثة كونية، أي أهم حادثة جرت في الأرض وفي السماء، وبعثا وحياة جديدة للإنسانية في الوقت نفسه. فهو بالرسالة النورانية التي حملها بيديه كان يقوم بتنظيم الدنيا من جديد حسب قيم السماوات، وبوظيفة الترجمان للحقائق الموجودة خلف أستار الوجود، وبتقديم تفسير جديد ونظرة جديدة للأشياء وللحوادث. فقد كان الوجود قبله دون معنى ودون روح، قد تمزقت الروابط فيه، وأصبح كل شيء غريبا عن الآخر. كأن الجمادات كانت من قبله رموزا لمسيرة العبث في مسرح الوجود، وتبدو الأحياء وكأنها في قبضة الانتخاب الطبيعي، وفي كل يوم بقبضة موت مختلف. وفي مثل هذه الوحشة المظلمة كان الإنسان يئن من الفراق كل آن كيتيم وكمظلوم. بالنور الذي نشره انزاحت الأستار وزال سحر الظلام فجأة، وفرّت الشياطين، وهُزمت الضلالات واستقرت في أعماق الجحيم، وتغيرت ماهيات الأشياء، فانقلب الهدم إلى بناء، والانقراض إلى التعافي. وبدأ المجيء إلى الدنيا والرحيل عنها يأخذ شكل مراسيم عيد، المجيء إليها عيد ميلاد، وفراقها عرس رحيل.

منذ أن داعب نوره رؤوسنا زال عن أرواحنا رعب الفناء، وفاضت بشائر الوصال من ديار الأحبة على الصدور الملتاعة. وبإكسير الحياة الذي نفخه في قلوبنا وفي قلب الإنسانية كلها بدأنا ندرك أنفسنا ونفهمها، وندرك ماهية العلاقات بين الأشياء، ونستطيع تقييم القابليات الموجودة في ماهيتنا وجوهرنا، ونحدس بُعد اللانهاية الموجودة لدينا. لولاه لما اكتشفنا هذا العمق الموجود في أرواحنا، ولا استبشرنا وفرحنا بالرحلة التي تمر من القبر نحو اللانهاية. هو الذي نثر على قلوبنا انفعالات الوجد والعشق... هو الذي أنار عيوننا بالنور... وهو الذي هيأنا للرحلة إلى بلد الأبد والخلود.

هو بالنسبة للساحل الذي ننتظر فيه بدء هذه السفرة الطويلة

والمليئة بالأسرار قبطان السفينة ومرشد الطريق. وهو بالنسبة للعالم الذي نرحل إليه ونصله. المضيف ومستقبل الضيوف ودليلهم، وشفيع لنا. لذا كانت هناك مسؤوليات معينة لنا تجاهه، ولا يمكن أن نبقى غير مبالين بهذا الأمر أبدا. ولكن الغريب أننا طوال عصور عديدة بقينا غير مبالين برمز الضياء هذا وبرسالته النورانية... لا، ليس فقط غير مبالين، بل أحياناً تصرفنا دون توقير واحترام تجاهه.

ومع أننا نحاول في الحقيقة ضمن دائرة معينة وضمن مقياس ما، القيام بشعائر الاحتفال بمولده بتوزيع بعض الحلويات وماء الورد، وأحياناً بجلب بعض المغنين أو قراء المدائح النبوية لإثبات ارتباطنا به... ولكن كل هذه المحاولات لا ترتقي ولا تتناسب مع عظمته. بل لم تصل حتى إلى الاحترام والاهتمام الموجه إلى عظماء في التاريخ لا يستطيعون إلا أن يقفوا باحترام أمام سيد الأنبياء والمرسلين. فمثلا لا نشاهد أي فورة فرح أو مظاهر بهجة كالتي نشاهدها في مناسبات عيد ميلاد المسيح عليه السلام وفي احتفالات رأس السنة الميلادية.

والمقترحات التي يمكن تقديمها هنا ليست بطبيعة الحال من التكاليف الشرعية، فلا يمكن لأي أحد ادعاء هذا. ولكني أتساءل ألا يمكن أن نجعل هذه الاحتفالات -باسم رسالته الهادية النورانية- أكثر عمقا وغنى وجدية؟

يتم الاحتفال بالأيام العائدة إلى السيد المسيح عليه السلام في جميع البلدان تقريبا، المسيحية منها وغير المسيحية، بمظاهر كبيرة من الفرح والحبور والبهجة. وتستمر هذه الاحتفالات أسابيع، بل أشهرا، تجري فيها حوارات وكلام في هذا الموضوع. وفي كل أسبوع يتم تبادل التهاني والهدايا باسمه، ويكون هذا هو الشغل الشاغل لدوائر البريد في تلك الأيام، وتدق الهواتف على الدوام من أجله، وترتفع سماعات الهواتف له، وتتزين كل الأرجاء بالشموع، وتغرق الأسواق والمحلات التجارية بالأضواء، وترتفع الضحكات. تنقلب البيوت إلى خلية نحل تئز بالمشاعر نحوه، وتئن المعابد بأناشيده، ويمر كل يوم ضمن احتفالات ساحرة تدير الرؤوس.

صحيح أن العديد من الناس في هذه الكرنافالات التي يختلط فيها الحابل بالنابل لا يعرفون ما يفعلون ولا يعرفون لماذا يفعلون، ويكون الكثير من تصرفاتهم تصرفات تهريجية ودون أي ضوابط. ولكن مع هذا تَشم في تلك الأيام نوعا من الوجد الديني، وقطاعات كبيرة من الناس تعرف ماذا تفعل.

على أي حال من الأحوال فإن الأيام والليالي المرتبطة بالمسيح عليه السلام قد امتزجت في فكر الإنسانية إلى درجة أن الجميع -أدركوا ذلك أو لم يدركوه- يجدون أنفسهم في خضم هذه الاحتفالات الغريبة. وسواء أكانت الاحتفالات عبادة أو لهوا أو تهريجا، فهم يجدون أنفسهم يشاركون المسيحيين المشاعر نفسها، ويقومون ويقعدون مع هذه المشاعر، حتى إنهم يقومون بقطع أشجار الصنوبر وبذبح الديك الرومي، وبشرب الشمبانيا، فيسكرون حتى الثمالة، ويخرجون إلى الشارع سكارى لا يدرون ما يفعلون.

طبعا نحن لا نرضى ولا يوجد هناك شخص واحد يرضى أو يقبل تحول مناسبة المولد السعيد والمبارك والمبجل، ولا تحول الدين الإسلامي إلى مثل هذه الكرنافالات. كما لا يملك أحد القدرة على القيام بمثل هذا التحويل. ولكن كلما شاهدنا كيف أن دنيا يسودها الكذب والرياء استطاعت استغفال الإنسانية كلها وأخذها في شباكها... كلما شاهدنا هذا نحاسب أنفسنا ونتسائل بحزن: "لماذا لا يستطيع العالم الإسلامي الاحتفال في ربيع الأول كما يجب بمولد سلطان الأنبياء الذي هو في الوقت نفسه ميلاد هذا العالم وربيعه، ويوم خلاص الإنسانية نفسها... الاحتفال بنفس المشاعر الجياشة".

لا يجب أن يتبادر إلى الأذهان مما ذكرنا أعلاه أننا نريد المسّ بمقام سيدنا المسيح عليه السلام وبمنزلته، أو بمقام أتباعه وحوارييه. فالاحترام والتوقير الذي نحمله نحن المسلمين تجاه هذا الرسول الكريم لا حد له. كما نؤمن بأن الرسالة التي أتى بها تشكل الآن ركنا مهما من أركان المدنية الغربية الحالية. فالمؤرخون وعلماء فلسفة الحضارات يذكرون بأنه لولا رسالة المسيح عليه السلام وما حملته من روح ومعنى لما ظهرت المدنية الغربية. لأن هذه المدنية تعتمد على أركان أو على أسس ثلاثة هي: الفكر اليوناني (الفكر الرياضي)، والقانون الروماني، ثم الركن الثالث المهم وهو الدين المسيحي. ويجب هنا أن نسجل بأنه لولا فخر الكائنات محمد عليه السلام ورسالته الهادية المنيرة لما كانت هناك حضارة تحت اسم الحضارة الإسلامية. ولولا الحضارة الإسلامية لما كانت هناك الحضارة الغربية.

أجل!.. فلو لم يكن هناك الدين الإسلامي بسماحته المعروفة ودفئه وتقديره للعلم والفكر وحضّه عليهما... ولولا شروقه على سفوح الغرب بألوانه السماوية... ولولا قيام العلماء المسلمين والمفكرين الأتراك منذ القرن العاشر بنقل الثقافة اليونانية-اللاتينية إلى أوروبا وتعريفها للأوروبين لبقي الغرب حتى الآن في ظلام القرون الوسطى. وكما هو معروف

فإن علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والهندسة والطب وغيرها من العلوم كلها من منشأ شـــرقي، ومنصهرة في البوتقة الإســـلامية. وعلى الرغم من وجود فئة مســـتغربة تتصور أن الغرب وحده هـــو مصدر كل شيء متعلق بالمدنية، وهي لا تقبل سوى هذه النظرة، فإن الغرب اضطر لكي يأخذ موضعه الحالي من المدنية إلى الانتظار ســـتة عصور بعد بعثة المسيح عليه السلام... انتظر والتقى بالإسلام. وسواء أستطاع الغرب تقييم هذا اللقاء كما ينبغي أم لم يستطع، فهذه مسألة أخرى، ولكنه تأثر به دون أي شك، واستفاد منه كثيرا، وخطط مستقبله على ضوئه.

على الرغم من عدم قيـــام الغرب بتبني الضوابط التي تشكل أسس الحضارة الإسلامية إلا أنه أخذ الشيء الكثير من الإســـلام واستفاد منه. ولعب ما أخذه عن الإســـلام، وما تداعى إليه منه، دورا كبيرا في تشكيل العقل والفكر الغربي الحديث. لذا نستطيع أن نقول مع الشاعر محمد عاكف:

الدنيا مدينة له ﷺ فيما تملكه،
المجتمع والفرد مدين له،
البشرية بأسرها مدينة لذلك المعصوم ﷺ،
يا رب!.. ثبتنا على هذه الكلمة يوم الحشر...

منذ عصور ونحن عاجزون عن الاحتفال بيوم وأسبوع وشهر ولادة هذا الرسول الكريم ﷺ الذي تدين له الإنسانية جمعاء، بما يتناسب مع قامته السامقة الرفيعة، بل لا يتم الاحتفال به بنسبة ما تتم من الاحتفالات لعظماء التاريخ الذين لا يستطيعون بلوغ كعبه ﷺ. فلو رتبت الاحتفالات بمولده أياما وسنوات وعصورا لما تم الإيفاء بحقه. ولو أنشدنـــا عشرات وآلاف القصائد والأناشيد كل ليلة لما أوفيناه حقه. ولكن انطلاقا من المثل الشعبي القائل: "السلطنة تليق بالسلطان، والتسول يليق بالمتسولين" نقول: "بدلا من عدم عمل أي شيء، فمن الأفضل عمل ما يمكننا عمله في الأقل". لذا يجب ترتيب ندوات على غرار "ندوة الرسالة الخالدة"[1] على أن تعقد هذه الندوة كل سنة في بلد مختلف، وتخصيص فترة معينة من الزمن لها. وإذا كان من الممكن تخصيص العام القادم كـــ"عام محمد ﷺ" مع شعورنا بالخجل والحياء من بخلنا وعدم وفائنا المتجلي بتخصيص عام واحد فقط له. ■

(*) الترجمة عن التركية: اورخان محمد علي

الهوامش

(1) تعقد هذه الندوة سنويا في تركيا. (المترجم)

النور الخالد ومفخرة الإنسانية

إن تسليط الأضواء على شخصية الرسول محمد ﷺ السامية، وشرحها وبيانها، ثم تقديمها كمنقذ للبشرية، وكإكسير للمشاكل المستعصية على الحل، وللأمراض غير القابلة للشفاء، وإظهار هذه الشخصية السامقة وسيرتها بما هي أهل له كان رغبة ملحة لديّ -كما هي عند كثيرين- وهاجساً من هواجس فكري ومشاعري، وموضوعاً مهمًّا من المواضيع التي لا سبيل للوقوف أمام سحرها وجاذبيتها أو الفكاك منها.

إنه ﷺ فخر للبشرية جمعاء... فمنذ أربعة عشر قرناً يقف وراءه أكبر الفلاسفة وأعظم المفكرين وأشهر العباقرة وأذكى رجال العلم الذين زينوا سماء الفكر عندنا.. يقفون وراءه خاشعين قد عقدوا أيديهم أمامهم وهم يخاطبونه ويقولون: "أنت الإنسان الذي نفخر بانتسابنا إليه."

ويكفي للاستدلال على مدى عظمته بأنه على الرغم من كل عوامل الهدم والنحر التي أصابت عصرنا، فنحن لا نزال نسمع من فوق المآذن أصداء نداء "أشهد أن محمداً رسول الله"، ولا نزال نشاهد كيف أن الروح المحمدية تفتح في كل مكان آفاق السمو نحو الأعالي، فيغمرنا الوجد والشوق خمس مرات كل يوم في عالم الروح. ونستطيع أن نشير إلى دليل عظمته فنقول بأنه على الرغم من كل هذا العمل المتواصل لأعداء الله في الداخل والخارج في الإفساد والإضلال، فإننا نرى حتى في هذه الأيام كيف أن العديد من الشباب في عمر الزهور -رغم

عـــدم إحاطتهم التامة بالحقيقة الأحمدية التي ليس من اليســـير معرفة مفاهيمها الدقيقة والصعبة- يتراكضون نحوه، ويحومون حوله مثلما تحوم الفراشـــات حول النـــور. وهذا أمر فريد لا نجـــد له مثيلاً في العالم؛ فالزمن لم يســـتطع أن يمحو من قلوبنا ومـــن صدورنا أي حقيقة من الحقائق العائدة لـــه ﷺ، ولا أن يبليها... أجل، فهي حقائق غضـــة ندية ونضرة على الدوام. وكما قلت لإخواني مراراً إنني عندما أذهب إلى المدينة المنورة أجد رائحته العطرة محيطة بي إلى درجة تشعرني وكأنني سأقابله بعد خطوة واحدة، وكأن صوته الشـــجي الذي يحيي القلوب يقول لي: "أهلاً وسهلاً.. ومرحباً."

أجـــل، إنه حي ونضر في صدورنا إلى هذه الدرجة، فكلما تقادم الزمن ازداد نضارة وطراوة وحيوية في قلوبنا.

إن الزمن يتقادم ويشيخ، وإن بعض المبادئ والأفكار تتعفن وتتهاوى، أما منـــزلة الرســـول محمد ﷺ فستبقى متفتحة في الصدور كأكمام الورود العبقة أبد الدهر، وســـتبقى نضرة في القلوب على الدوام.

وأنا أرى لو أننا اهتممنا واعتنينا بتقديمه والاهتمام به مثلما فعل الآخرون في تقديم شخصياتهم، ولو أن المؤسسات العلمية والمؤسسات الأخرى المتعلقة بشؤون الحياة نذرت نفسها للاهتمام به وشـــرحه وتوضيحه وبيان جوانب شخصيته، لما تَربّع على عرش القلوب غيره، ولما تخلل في الضلوع والصدور ســـــواه.

ولكن مـــع كل هذا، وعلى الرغم من كل شـــيء يهرع الكل من شـــرق الدنيا وغربها حاملين معهم دلاءهم، مسرعين نحو نبعه الصافي الفياض.. نحو المنهل العذب المورود، يحدوهم الوجد والهيام ليبلغوا قبته.. قبة الإنســـان الذي يضع التيجان على هامات الشموس.

أجل، إننا نشاهد في جميع أنحاء العالم -ولاسيما في أمريكا وإنكلترة وفرنســـا وألمانيا- انبعاثاً جديداً لمنهجه ﷺ، وحركة دائبة من قبل المســـلمين لشـــرح وبيان مبادئه، ونسج نسيجه المزخـــرف ذي النقـــوش البديعة والألوان الجميلة المتناســـقة، فكأنهم يعيشـــون روح عهد النبوة من جديـــد. ونرى الأمر نفســـه في العالم الإســـلامي.. فقبل قرن أو قرنين كان هناك أناس يشـــعرون بارتباطهم مع المســـلمين عن طيب قلب دون تدقيق أو تمحيص، أما الآن فهناك مثقفون يعرفون لماذا يؤمنون بالإسلام، ولماذا يقتدون بالرسول محمد ﷺ؛ لأنهم بدأوا بتحليل المسائل الإسلامية تحليلاً علمياً دقيقاً. فحتى الآن استغل أعداؤه الجامعات والكليـــات والمدارس والطبقـــة المثقفة، وخدعوها بشعارات براقة، واستخدموا المؤسسات الوطنية لحساب الكفر والضـــلال، ولكن كل هذه الأمور آذنـــت بالانتهاء، وبدأت تتفتـــت وتذوب وتضمحل مثل جبال الثلج الطافية على المياه، وبدأت الإنسانية تتجه نحو رسول الله ﷺ وتقبل عليه.

أمـــا الذين غيّروا مذاهبهـــم وأفكارهم مرات ومرات منذ ســـنوات عديدة، وانتقلوا من هذا المبـــدأ إلى ذاك، ومن هذه الأيدولوجيـــة إلى تلك، فقد رأى هؤلاء كيف باءت محاولاتهم هذه بالفشل والخذلان، ورأوا أن المدرسة الوحيدة التي لم يقربها الخذلان هي مدرســـته ﷺ، وأن ســـبيله وطريقه هو الصراط المســـتقيم، فاتجهوا إليـــه وأقبلوا عليه.. هكـــذا فعل "موريس بوكاي"، وهكذا تصرف "روجه غارودي"، وغيرهم وغيرهم.

ولكن هل اســـتطعنا أن نفهم الرسول ﷺ سلطان القلوب المتربع على عرش الأفئدة حق الفهم، وندركه حق الإدراك؟

ولكن ما بالي أشـــير إليكم، أو أعنيكـــم؟ ما بالي أنا؟ هل اســـتطعت أن أشـــرح جوانب عظمته كما يجب، وأكشف معالم شـــخصيته كما ينبغي؟ أنا الذي أضع جبهتي للصلاة منذ الخامسة من عمري، وأنا الذي أدّعي أنني وضعت الطوق حول عنقي لكي أكون "قطميرا"[1] لـــه. هل استطعت أن أشعركم بما يجيش في صدري من عظمة النبي ﷺ كما يليق بجوانب هذه العظمة؟ إنني أسائل نفسي وأسائل جميع الذين يتصدون للتبليغ والدعوة: هل استطعنا أن نشرح لإنسان هذا القرن حبه.. حب ســـيد الســـادات حبّاً تجيش به القلوب؟ هل استطعنا أن نبهر القلوب والأرواح بهذه العظمة، عظمته ﷺ؟

كلا! فلو عرفته البشـــرية حق المعرفة، وفهمته حق الفهم لهامت به حبّاً ووجداً.. ولو تغشـــت الأرواحَ ذكراه الجميلة، لثارت أشـــواقها وفاضت عيونها بالدموع، ولاقشـــعرّ جلدها وهـــي تخطو إلى عالمه.. عالم النبوة الطاهر، ولألقت بنفســـها للريح كي تشعل جذوة قلوبها المتقدة بحبه بعدما صارت رماداً، فتذروها الريح نحوه ﷺ.

ولأن الإنســـان يحب بمقياس إدراكـــه وفهمه، ولأنه عدو ما يجهـــل.. فإننا نرى أن البؤرة الـــتي تتجمع حولها محاولات أعدائنا على الـــدوام ومؤامراتهم، هي بذل الجهود لإقصائه ﷺ عن القلوب، وإهمال ذكره، وتنشـــئة الأجيـــال الجديدة على

عداوته وبغضه، وتوجيه هذه الأجيـــال وتربيتها وتعليمها في هذا الاتجاه.

ولكن انظـــروا إلى هذا التجلي الإلهـــي.. فجميع العقبات والسدود والموانع التي وضعها خصومنا لكي يمنعوا حبه ﷺ من القلوب، ويزيلوا ذكره من العقول، قد انهارت جميعها وتهدمت وأزيلت وتجاوزها الإنسانية، وبدأ الشباب يهرع إليه بكل فرح وحبور، كفرح ظمآن في صحراء موحشة وجد بالقرب منه ماء سلسبيلاً بارداً بعد أن قاسى آلام العطش والظمأ أياماً عديدة. ولا شـــك أن قلباً رحيماً مثل قلبه ﷺ لا يَردّ أبداً من يقبل عليه بكل هذا الشـــوق وبكل هذا الوجد والعشق، بل يحتضنه بكل حنان وشفقة، ويضمه إلى صدره.

لا أدري إن كنتم انتبهتم إلى الناس الذين يملؤون المساجد على سعتها أيام الجمع؟ فلو دققتم النظر لرأيتم أن معظمهم من الشباب.

فيا ترى ما الذي يدفع هؤلاء الشباب في برد الشتاء القارس، وفي المطر والثلج إلى الجوامع وإلى الوضوء وأسنانهم تصطكّ من البرد؟ من يدفع هؤلاء على الرغـــم من محاولة أرباب الضلالة والطغيان جذبهم نحوهم بقوة لا تقاوم؟ سأجيبكم أنا: إنها قوة الجاذبية القدسية للرسول محمد ﷺ.

وسواء استطاعت عقولنا أن تفهم وتستوعب هذه الحقيقة، أو عجزت عن ذلـــك، فإن القلوب دائمـــا ترف حول هذه الشـــمعة وتطوف حول هذه الشـــمس. وفي المستقبل القريب ســـوف يتجرع مرارة الألم ولوعة الندم من فاتته المسارعة إلى رحابه، والتوجـــه إلى جنابه ﷺ. ومن لم يقف في صفه، وبقي متشرداً، بائســـاً، وحيداً، منفرداً مثل ذبابة الشتاء.. سيتأوه من الألم، وســـيعض أنامله حســـرة وندما قائلا: "لِم لم أتوجه إليه وأُحُمْ حوله كالفَراش؟" وحينذاك قد يكون الوقت متأخراً ومنتهياً بالنسبة للكثيرين منهم.

سيهرع العالم والدنيا إليه، وستدقق المحافل العلمية في سيرته، وستســـبر وراءه كل نفس متفتحة على عالم الفكر، وسيتحول العديد من أعدائه إلى أخلص محبّيه وأتباعه، ويهرع إليه ليلوذ به. بل إن منـــزلة الرسول الكريم بدأت ترجح في كفة ميزان الطرف الخصم حتى بمقاييسه وبموازينه، وبدأت الأوساط المعادية له تقر وتعترف بعظمته. وقد ورد في الحديث بأن الرســـول ﷺ وزن بعشـــرة من أمته فرجَحهم، ثم وزن بمائة فوَزَنهم، ثم وزن بألف من أمته فوزنهم، فقال المَلَـــك لصاحبه: "دعه عنك فلو وزنتَه بأمته لوزنها."[٢] وجاء هـــذا المعنى في حديث آخر كذلك.[٣]

أجـــل، فلو وُضع الصحابة والتابعون وتابعو التابعين وأكبر الناس وأعلمهم حتى يوم القيامة، وجميع المتصوفة والزهاد الذين فتحوا القلوب ونفذوا إليهـــا، وكل الأولياء والأصفياء، وكل الأبـــرار والمقربين في كفة، ووضع محبوب قلوبنا وســـلطانها، وضياء عيوننـــا ونورها في كفة لرجحهم جميعا، ذلك لأنه هو سبب الوجود وحكمته.

فهو علة الكون والكائنات. وهناك قول مشهور يتردد على ألســـنة الكثير من الناس: "لولاك لولاك ما خلقتُ الأفلاك."[٤] أجل، فمن العبث كتابة كتـــاب لا يمكن فهم معناه، والله ﷻ منـــزه عن العبث، لذا فهناك حاجة إلى مرشد جهوري الصوت مثل ســـيدنا محمد ﷺ ســـيد الزمان والمكان لكي يشرح معنى الوجـــود، ومعنى الكون والكائنات. كذلـــك هناك حاجة إلى شـــارح وإلى مبلغ مثله لكي يشرح لهذا الإنسان الذي سخرت له هذه السماء الواسعة والأرض والشمس والقمر والنجوم وكل الوجود.. يشـــرح له من أين أتـــى وإلى أين هو كادح وإلى أي شيء هو مرشَّـــح ؟ أجل، لكي يعلن ويوضح هذا، ويوصل ما وراء أســـتار الوجود إلى الأرواح. فلو لم يكن موجوداً لما كان للكون ولا للإنسان أي معنى، لأن الرسول محمدا ﷺ هو الإنسان الذي أسبغ المعاني على الأشياء.

هو أقرب وأحب إلينا مـــن كل المحبوبين. ومع أنني أعدّ

نفسي أكثر المؤمنين قصوراً وذنباً، إلا أنني لا أملك نفسي من شرح إحدى مشاعري.. وغايتي من هذا الشرح هو لكي أبين: إذا كنت أستطيع أن أحب رسول الله كل هذا الحب، فما بالك بالقلوب والأرواح الواصلة إلى مراتب عُليا في حبها لهذا الرسول الحبيب، وكيف تشتعل هذه القلوب بعشقه ووجده ؟ لذا، أودّ أن يتم تقييم شرح مشاعري من هذه الزاوية، وإلا فإن أدبي كان يمنعني من طرح مشاعري في حضوركم:

عندما مَنّ عليَّ الله ﷻ بزيارة الأراضي المقدسة لكي أعفر وجهي بتراها بدت لي بلدة رسول الله مضيئة ونورانية، إلى درجة أنني ذقت معها سعادة روحية غامرة، وفرحا لا يوصف، بحيث أنني شعرت بأنه -على فرض المستحيل- لو فتحت لي حينذاك أبواب الجنة كلها، ودعيت للدخول إليها.. أجل، لو تم هذا، فصدقوني بأنني كنت سأرفض دخول أي باب من أبواب الجنة، بل كنت أختار وأفضّل البقاء هناك.

والحقيقة أن الجنة أملنا جميعا، ومن الصعب تصور أن هناك مسلماً واحداً لا يرغب في الدخول إليها.. ألا نبتهل لله ﷻ كل صباح وكل مساء في أدعيتنا أن يجيرنا من النار وأن يدخلنا جنته؟ ومع اعترافي بهذا وقبولي له، فإنه لو عرضت عليّ تلك المرتبة العليا، ودُعيت لها، لربما استأذنت ربنا أن يسمح لي بالبقاء في الروضة الطاهرة لرسول الله ﷺ. ولا يذهبن الظن بأحدهم بأنني أرى نفسي لائقاً لتلك المرتبة العليا، بل إنني أردت فقط إظهار مدى حبي لرسول الله ﷺ، وإلا فإنني قضيت حياتي أدعو الله أن ينيلني شرف الخدمة لأصغر صحابي من صحابة رسول الله ﷺ، وكان ابتهالي من الله تعالى أن لا يُبعد فكرنا لحظة واحدة من أمنية تعفير وجوهنا بتراب أرجلهم، وكان الكثير من الأوراد التي يكررها لساني على الدوام تحمل هذه المعاني.

وجاشت المشاعر نفسها عندي في بيت الله، وقد تكون هذه المشاعر مشاعر مشتركة لدينا جميعاً. ثم إن من يحمل هذه المشاعر غير محصور فيَّ وفي أفراد قلائل، فكم وكم من ذائب في عشق رسول الله ﷺ تُعدّ هذه المشاعر بالنسبة له مشاعر بدائية وخشنة.

وما دمنا وصلنا إلى هذا الموضوع من الحديث فإنني أود أن أسوق ذكرى أخرى من ذكرياتي:

كنا في الحج معاً مع السيد "عارف حكمت"، وكان آنذاك نائباً في المجلس الوطني، وكان قد قطع عهداً على نفسه أن يتمرغ في تراب المدينة المنورة حالما يصل إليها.. وما أن وصل إليها حتى ألقى هذا الرجل الفاضل نفسه على التراب، وبدأ يتقلب ويتمرغ في ترابها. فكلما تذكرت هذه الحادثة امتلأت عيوني بالدموع.

إن رسول الله نبي، ولكنه نبي بَشّر به جميع الأنبياء السابقين. فقد أخذ الله ميثاق النبيين جميعاً لَيؤمُنّ به ولينصرنه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لَمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران:٨١).

وقد التزم جميع الأنبياء بهذا العهد الذي قطعوه لله ﷻ وعاشوا لتحقيق هذا العهد، وكان نشاطهم منصبّاً في هذا الاتجاه. وعندما عرج برسول الله ﷺ إلى السماء صلّت أرواح هؤلاء الأنبياء وراءه.[٥] أجل، فكأن جميع الأنبياء وفي مقدمتهم النبي إبراهيم عليه السلام ونوح عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام كانوا يريدون أن يكونوا مؤذّنين عنده. يقول عيسى عليه السلام في الإنجيل: [إنني ذاهب لكي يأتي سيد الزمان.] (يوحنا-الباب: ١٦، الآية: ٨)، أي كان يلفت أنظار الإنسانية إلى هذا النبي العظيم.

أجل، فعندما عرج إلى السماء امتلأت حجور السموات باللآئي والجواهر، وفُرشت النجوم تحت قدميه كأحجار الرصيف.. وعندما وصل إلى أفق الشمس تمنّت الشمس أن تكون جوهرة على تاجه.. كل هذه الموجودات كانت تطوف وتدور حول نبوته.

ثم إنه كان يمثل الصفات الإنسانية في ذروتها ليكون قدوة وأسوة حسنة لنا. فمثلاً كان رئيس عائلة مثالي، وفي ذلك البيت حيث كان إكسير النبوة يتقطر فيه قطرة قطرة، لو توزّع كل ولد من أولاده الناشئين فيه على العصور، لنشأ منهم مجتهدون ومجددون ينير كل منهم عصره. ولا أدري كم من الناس نجح في معرفته من هذه الزاوية.

كان في الوقت نفسه قائداً عسكريًّا لا يشق له غبار. فبواسطة نفر من أصحابه الذين تحلّقوا حوله كما تتحلق الهالة حول القمر أهوى عروشاً لسلاطين جبابرة كانوا قد أعلنوا الحرب على العالم بأسره، ودخل ملوك عظام في إسار حبه.. إسار لا يريد الفكاك عنه، مع أنه إن أخذنا بظاهر الحال فإنه لم يدرس علم الحرب وفنونها، و لم يتعلمها من أحد.

ثم إنه الشخص الذي تنتهي عنده العلوم. فكأنه جالس أمام شاشة يشاهد جميع الحوادث حتى يوم القيامة، ثم يخبر عنها.[٦] ومع أن عصـــوراً عديدة مرت منذ ارتحاله إلى دار البقاء، ففي المحطة الأخيرة التي وصلت إليها البحـــوث والتقنية المعاصرة بكل إمكانياتها الهائلة، نرى الراية التي ثبتها رســـول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً ترفرف في السماء، ونرى الذين هداهم الله ﷻ ينطقون بالشهادتين، ويكوّنون حلقة من الحلقات المضيئة لقافلة الإسلام. إليكم مثالاً واحداً من أمثلة لا تعد ولا تحصى:

ففي شريط فيديو شاهدتُ البروفسور الكندي "كيث مور" أستاذ التشريح في كلية الطب في جامعة تورونتو والمتخصص في علـــم الأجنة وهو ينبهر بما ورد في القرآن الكريم حول مراحل نموّ الجنين في بطن أمه، هـــذه المراحل التي لم يكن في الإمكان اكتشافها إلا بعد التطور التكنولوجي الحالي.

كما شـــاهدتُ عالـــماً فيزيولوجيًّا يابانيًّا وهـــو يتلفظ بكلمـــة الشـــهادة بصعوبة، ودخل بـــكل اطمئنان ورضا إلى صفوف المســـلمين بعدما رأى وسمع الآيـــات القرآنية المتعلقة بساحة اختصاصه.

أجل، فكما هو ظاهر فالقرآن الكريم يفتح المنافذ أمام العلم كلما انسدّت الســـبل أمامه، وإن نقطة النهاية للعلم هي نقطة البداية عند رسول الله ﷺ، ولكن من علّمه كل هذا؟ لقد أخذ درسه من الله "العليم" "الخبير". فوراء هذه المعارف هناك المعلم الأزلي، ومـــن ثم فإن المعارف التي اســـتقاها لم تتعرض للقِدم والبِلى، بل اكتسبت شباباً وحيوية ونضارة كلما تعاقبت عليها العصور، وستتجدد على الدوام ما دامت السموات والأرض.

ثم إنـــه ﷺ كان محبوباً من أصحابه وأصدقائه حبّاً لم يكن من نصيـــب أحد. فمثلاً عندما أحضر الكفار الصحابي خُبيب بن عدي t بعدما أسروه عقب غزوة "ماء الرجيع" سألوه قبل إعدامه: "أتشتهي أن يكون محمد مكانك وتكون أنت آمناً في بيتك؟" فأجابهم: "لا والله، لا أحب أن يشـــاك شوكة في قدمه وأنا في موضعي هذا." وبعد هذه الإجابة الشـــجاعة رفع يديه ودعا قائلاً: "اللهم إنا قد بلّغنا رســـالة رسولك فبلّغه الغداة ما يُصنع بنا" ثم دعا على الكفار: "اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بَدَداً ولا تغادر منهم أحداً." ثم قتلوه رحمه الله.[٧]

وقد تلقى الرسول ﷺ هذا السلام، وأبلغ أصحابه باستشهاد خُبيب وهو في غاية التأثر، إذ يروي موســـى بن عُقْبة أن خُبيباً وزيد بن الدَّثِنَة ﷺ قُتلا في يوم واحد، وأن رسول الله ﷺ سُمع يوم قُتلا وهو يقول: "وعليكما -أو عليك- الســـلام، خُبيب قتلته قريش."[٨]

وهاكمْ مشهداً آخر يشـــرح قلب كل مؤمن رغم مرور الدهور وتعاقب العصور:

عندما سمعتْ الصحابية سُـــميراء في معركة أُحد أن رسول الله قد استشـــهد، أسرعت إلى سفح جبل أُحد، وهناك أروْها جثـــث أبيها وزوجها وأولادها، ولكنها لم تلق بالاً لذلك، بل كانت تبحث عن رسول الله، وتســـأل على الدوام: "ما فعل رســـول الله؟" وعندما أشـــاروا لها أخيراً إلى مكان رسول الله هرعت إليه، وألقت بنفســـها علـــى الأرض أمامه قائلة: "كل مصيبة بعدك جَلَل!"[٩][١٠] إذن، فهكذا تَربّع حب رســـول الله في القلوب والصدور.

وإليكم مثالاً آخر يظهر مدى حب الصحابة للنبي ﷺ:

كان رســـول الله وفخر العالمين قـــد أبلغ بقرب رحيله إلى الرفيق الأعلى، فكأنه استلم دعوة من وراء السموات بذلك.. إذن، فقد حان وقت فراقه عن أحبائه وأصحابه الذين جاهدوا معه طوال ثلاث وعشـــرين سنة، لذا كان يخرج للقاء أصحابه حزيناً في أيامه الأخيرة. وكان الصحابة يتأثرون من حاله هذه ويحزنون، وصدورهم تمور بالحزن والأسى كلما رأوا رسول الله ﷺ يدخل بيته. وكان رسول الله ﷺ قد أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ليبلّغ رســـائل النبي ﷺ وأوامره وتعليماته، وعندما يرجع من اليمن يعرض على رســـول الله مـــا رآه من أمور وأحداث وما قابله من مشاكل. وقبل سفره الأخير ذهب إلى رسول الله ليدعو له قبل التوجه إلى اليمن، ولكنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقـــول له: "يا معاذ! إنك عســـى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمســـجدي وقبري."[١١] فكأن صاعقة نـــزلت على رأس معاذ.. شـــعر كأنه طير قد قُصّ جناحاه.. وانهمرت الدموع من عينيه.

وكان ﷺ يحل أعقد المشـــاكل الاجتماعية بكل بســـاطة وسهولة، وبعده بثلاثة عشر قرناً أشار "جورج برنار شو" إلى هذه الحقيقة قائلاً: "ما أحوج عصرنا إلى شـــخص مثل محمد ﷺ، يحل له مشـــاكله ريثما يشرب فنجاناً من القهوة." وهذا هو المهم، فالفضل ما شهدت به الأعداء.

أجل، إن البشرية حينما تتوجه إليه تشعر بالأمن والطمأنينة،

وتصل إلى الآفاق النيّرة المضيئة، وتتخلص من السفالة والسفاهة، ولا تكون أُلعوبة بيد الأيام، بل تتخلص من الخسران في الدنيا وفي الآخرة، وترتفع وتسمو إلى المرتبة اللائقة بالإنسانية. والحقيقة أنه بالرغم من كل القوى المعادية، ومن كل الموانع والعقبات، فإن جميع المؤشرات والأمارات تومئ إلى بداية البعث والنهوض من جديد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصفّ:٨-٩).

أجل، إن الله سيظهر دينه، ويتم نوره، وستهرع إليه القلوب والنفوس الظامئة لكي تجد الأمن والطمأنينة في رحابه، فتعيش سعادة أهل الجنة في الدنيا؛ وسيأتي اليوم الذي تنفتح جميع القلوب وجميع الضمائر وجميع النفوس لمحبة خاتم الأنبياء وسلطان الأولياء الذي نعلن اسمه خمس مرات على الملأ كل يوم.

وكان أيضاً مبعثاً للطمأنينة، فنحن نؤمن إيماناً راسخاً لا شك فيه بأن الرسالة التي جاء بها منبع للأمن والطمأنينة.. والتاريخ هو أكبر شاهد على ما نقول. ولكي تذوق الإنسانية هذه الطمأنينة مرة أخرى، فليس هناك إلا حل واحد أمامها، وهو أن تهتدي بالنور الذي أتى به الرسول ﷺ، إذ كلما ازداد الإنسان معرفة به ازداد حبًّا له.. وبهذه المحبة سيتغير وجه المجتمع.[12] ■

المصدر: النور الخالد، ص: ١٣-٢١.

الهوامش

(١) قطمير: هو اسم كلب أهل الكهف. (المترجم)

(٢) الدارمي، المقدمة، ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٤/١٨٤؛ الشفاء للقاضي عياض، ١/١٧٣.

(٣) المسند للإمام أحمد، ٢/٧٦.

(٤) كشف الخفاء للعجلوني، ٢/١٦٤.

(٥) انظر: جامع البيان للطبري، ١٥/٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/١٣٩.

(٦) انظر: البخاري، القدر ٤؛ مسلم، الفتن ٢٢-٢٥؛ أبو داود، الفتن ١؛ المسند للإمام أحمد، ١/٤؛ ٥/٣٨٦.

(٧) البخاري، المغازي ١٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٩٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣/١٨٢.

(٨) البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٧٦؛ حياة الصحابة للكاندهلوي، ١/٥٢٤-٥٢٥.

(٩) معنى جلل هنا: هين أو صغير. (المترجم)

(١٠) مجمع الزوائد للهيثمي، ٦/١١٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٥٤.

(١١) المسند للإمام أحمد، ٥/٢٣٥.

(١٢) جاء في الحديث: من خالطه معرفةٌ أحبه. الترمذي، المناقب ٨.

من وحي الساعة

يا وردة الأفئدة،
يا فوّاحة العطر،
يا عالية القدر،
يا قمة فوق القمم..
ها نحن قادمون..
أميال ساعتنا،
إليكِ تشير،
قادمون، وإليكِ سائرون..
ومهما تباطأ الخطو،
غير أننا سائرون،
وللمسافات قاطعون...

* * *

* تستعمل الوردة في الأدب التركي رمزا للرسول ﷺ.

البردة النبوية الشريفة التي أهداها الرسول ﷺ إلى كعب ابن زهير ﷺ / متحف طوب قابي - إسطنبول

حراء
مجلة علمية محكمة فصلية
www.hiramagazine.com

القـــول الفصل الأخير حول حقيقة "الله والكون والإنســـان" هو لحضرة محمد ﷺ الذي هو شـــجرة الوجود، والعلة الغائية لكتاب الكائنات، وأقوى صـــوت للدعوة إلى الحق تعالى... إنه هو المُخبر الأخـــير "عن الغيب" وعن "غيب الغيب"، وهو المفســـر السديد للأشـــياء والأحداث، وهو المبيّن للعلاقة بين الإنسان والخالق من غير أدنى لبس، وهو الموضح عيانا وجهاراً مقتضيات هذه المناسبات. هو المرشد إلى القرب الرباني؛ وهو الأول والأقـــرب إلى الحق تعالى مـــن جهة، والأخير والأعظم أمانة من وجهة أخرى.

صاحب القول الفصل

الملائكة انتظرته، والأنبياء بشروا به، والأولياء ثمراته التي تقتبس منه النور. مشـــكاة النبوة اتقدت به بداية، وبه أيضاً ظهرت زبـــدة معناها ومحتواها في أبهى صـــورة وأنْورِها. نوره الأول ســـباق الأنوار، وطوفان ضوئه الأخير هـــو ظهوره في العالم الخارجي. ومن جهة أخرى، هو فهرســـت الآفاق والأنفس، ولب الوجود وعصارته، وأضوأ ثمار شـــجرة الخلق من حيث الغاية، وسيد الإنس والجن أجمعين باسم الخالق الجليل.

هو فوق الوصـــف أبداً من حيث جوهره وموقعه، لا نظير له باعتبار ذاته، فريد الكون والزمان بأعماقه الأخروية، وبرهان ظاهر بالرســـالة التي يحملها. شـــهرته تمتد إلى ما قبل آدم النبي، وضياؤه لمجت به الألســـن من قبل وجوده، وقدومُه -وقدمه تاج رؤوسنا- إحسان للإنســـانية جمعاء. وجوده أصفى لؤلؤة في صَدَفة الوجود، ورسالته أشمل الرسالات. علمه زبدة العلوم كلهـــا، وعرفانه منبع نقي وصافٍ يجمـــع حوله أضوأ الوجوه، وأُفقُه كمرصد تهرع إليه الأرواح الصافية المتطلعة إلى اللانهاية. العيون حظيت بقراءة الأشياء على وجهها الحقيقي بفضل النور الذي نشـــره في الأرجاء. والآذان استمعت في ترانيم أقواله إلى أنغام روحانية من جواهر الكلمات لم تســـمعها من قبل. وكم سرٍ ظهر عيانا بيانا، وكم فكرٍ كدرٍ صفا إلى الصفوة في أجوائه. من رآه واســـتمع إليه زال عن روحه الصدأ، وانقشع عن عينه

الضبـــاب. وما أن أخبر عن أولِ كلِ أول، وآخرِ كلِّ آخر حتى عُرف كل مجهول عجزت عن إدراكه عقول البشر، وتجلى غير المعلوم بلباس العلم والمعنى، وأصبح الوجود كله قصيدة شـــعرية تنشد على كل لسان، ونغما أبديا يُفَسِّر غاية الخلق ومقصده.

العلـــوم ما هي إلا قطرة من بحر علمـــه، والحكمة برمتها رشحة نزرة من شـــلال معارفه. الأزمنة كلها لا تعدل لحظة من لحظـــات عمره. كرة الأرض التي لا تزن جناح بعوضة في الكائنات، هي عالم يعدل الوجود بســـر كونها مسقط رأسه. هو المقدم في التعيّن والبرنامـــج القدري، وهو صاحب القول الفصل الأخير في قضية النبوة، وهو الشـــارح الحقيقي للظاهر، وهو الناطق بأســـرار الباطن. هو ســـلطان عرش النبوة بخَلقه خلقـــا ملائماً لتلقي الحقائق العلمية والعقلية من روح القدس، وبشـــعوره الرحيب، وبإدراكه الرفيع، وبقلبه المنفسح لما وراء الملكوت، وبسر استعداده للاطلاع على ما وراء الوراء. وهو أفصح ترجمان لعالم الرســـالة الإلهية مبلغا ما تلقاه إلى الأرواح والعقـــول من غير عارض أو خلل، كجهاز اســـتقبال نوراني منفتح على الماورائيات.

وهو –مع أن له خصوصيات ذاتية سامية– يخبرنا بمقتضى نبوته عن الحق تعالى، ويُعَرّفنا به، بذاته وأسمائه وصفاته، ويُحفّز فينا الشعور بالمســـؤولية أمام الحق تعالى. ومن هذه الجهة هو معرّف ومعلم أكبر يُبَيّن ما لا يَبين ويشعر أرواحنا بما لا يُدرك. أما من جهة تبليغ الأحكام الدينية وتعليم القيم الإنسانية وتمثيل الأسس الأخلاقية، فهو مُشَرّع موظف وواضع للقوانين وقول شارح لحقيقة الحقائق.

الجامع بين الظاهر والباطن والأول والآخر

إن النبوة والرســـالة وتحت وصايتهما الولاية، كما أنها متفتحة علـــى الظاهر، كذلك هي "مُفَتّحة الأبواب" على الباطن. وإن عقول هؤلاء (الأنبياء والرســـل والأولياء) أيضاً قد اصطبغت بصبغة هذا المنصب الإلهي... لكنها تقف من ورائهم بخطوات، تنتظـــر الأوامر منهم. إن عقلاً مدركاً لحدوده –مثل عقولهم– داخلاً في وصاية النبوة، يتنور بـــ"الروح الأعظم" ويصير بُعداً مهما من أبعاد حقيقة الإنســـان. وبمرور الزمان يبدأ باستشعار الباطن مع الظاهر، والآخر مع الأول.

وإن للوجود ظاهراً وباطناً. الظاهـــر يُرَى بالعين ويُدرَك بالحواسّ، ويُقَوّم بالعقل والمحاكمة العقلية. أما الباطن فلا تفتح أبوابه إلا من قبل الله لمن خُلق بجَهاز يستشعره، فيتم الإحساس به صوتاً ونَفَســـاً ولوناً ونقشـــاً مختلفا عن الظاهر. فالأنبياء يســـتمعون إلى هذا الصوت والنَفَس بموجات مختلفة الأطوال مدى الحياة، ويتصرفون أبداً بمقتضاه.

وإن حضرة ســـيد الأنام، عليه أكمل التحايا، رمزٌ وصوتٌ للفائقيـــة المطلقة من حيث جهازه الخاص المتناســـب مع حاله الخاص. فالله يُســـمعه ما لا يُســـمَع، ويريه ما لا يُرى، ويُقدمه على الروحانيين بإكســـاب روحه ماهية فـــوق الزمان والمكان أحيانـــاً، فيتقدم على الملائكة، أكرم عباد الحق تعالى، فيصل إلى "قاب قوسين أو أدنى". وله مكانة وقَدْر متماد ووطيد عند الخلق كدرجته عند الحق تعالى؛ فإنه ما حاد عن الاستقامة قيد شعرة في عمره كله، ووَثِق به الجميع من صديق أو عدو، وبلّغ المخاطبين بما أُوحي إليـــه من الحق تعالى في بهائه الربـــاني، ولم يُذكر إلا بالعصمة، ولم يُعرف إلا بالصون الإلهي، وقرأ –دائما– الطبيعة وما وراء الطبيعة قراءة سديدة، وفسرهما تفسيراً صحيحا بروحه النـــيرة وبفطنته النافذة المتفتحة على عوالم المادة وما وراء المادة؛ ولذلك هـــرع إليه من غير توان صاحـــب كل وجدان نظيف متنـــزه عن أي حكم مسبق، وخضعت له أعصى النفوس تمرداً، واستســـلمت له أذكى الأدمغة قاطبة؛ إذ قرأت في رسالته غاية خلق العقل. وبفضله انســـلخ الإنسان من الحيوانية والجسمانية وتوجه تلقاء أفق في مرتبة حياة القلب والروح. هو –باعتبار أفق الوجود– المفتاح الســـري للباب الموصل إلى الوجود الخارجي، وهو –باعتبار تحقيق الهدف من خلق الوجود– الهادي إلى الصراط المســـتقيم الموفي إلى الحق تعالى، ونبع شـــفاعة السعادة الأبدية.

كل الأنبياء الذين مضوا من قبله قد قالوا ما قاله... والأولياء والأصفياء من بعده كلهم أجمعون –وأحوالهم الخارقة شاهدة على دعواهم– صدّقوه وشهدوا على صدقه، وأقروا واعترفوا بـــأن حظوتهم هي منه. فإنه قد قـــال "الله" ولفت الأنظار إلى التوحيد. وإن أصوات الأنبياء والمرسلين وأنفاسهم، ومشاهدات الأولياء والأصفياء وكشوفاتهم طراً، تؤيده وتسنده.

وكان صرحـــاً للإيمان... يعيش مـــا يقوله بمعيار أدقّ من شـــعرة شـــطرت أربعين مرة، ويزن تصرفاته بموازين الآخرة الدقيقة، ويحيا حياته في عمـــق كأنه يرى الله، وفي عمق رؤية الله له. هو الأرهف حساســـية في تصرفاته، والأعظم جدّاً في المسؤولية، ويســـعى حثيثا في أثر حسن العاقبة ولا يحيد طرفة عـــين عن الهدف، بل يهرع أبـــداً إلى النقطة التي اختير لها...

وإذ يهرع إليها، يمد للجميع خطوط المعاني حُزماً حُزماً من الروابط بينه وبين الله تعالى.

شارح معنى الوجود

وهو الذي شرح معنى الوجود فربطه بصاحبه الحقيقي، وبيّن الحكمة المكنونة في لب الأشياء والأحداث، وذكّرنا مرارا بأننا لسنا وحيدين هنا، فشرح صدورنا بإشعار أرواحنا بأننا تحت الرعاية الربانية، وأزال الوحشة من نفوسنا وسما بأرواحنا إلى العلياء بنفحات أنسه، وسقانا مشاعر السكون والاطمئنان التي نشعر بها في ربوعنا وبين أهلينا. فإن كنا نحس بأن كل شيء في محله في هذا المأوى الدافئ، وإن كانت قلوبنا تخفق بعشق الحقيقة، وإن كنا نطلق أنظارنا في آفاق الكون الشاسعة مفكرين متأملين، فهذا كله بفضل النور الذي أوقده في عقولنا. وكل ما نعرفه عن الإنسان والوجود والكائنات برمتها، فهو تفصيل لمجمل ما أودعه في نفوسنا، ونمو لبذور الحقائق التي بثها في أرواحنا.

هو باني الإنسانية من جديد، ولا يزال، وسيبقى بانياً، في أمسها ويومها وغدها. وكما بدل في عصره بحملة واحدة، وبنفخة واحدة، مفاهيمَ ضالةً، وسلوكيات غير إنسانية، وانحرافاتِ سوءِ الأخلاق والمزاج المغروسة في الطبائع من آلاف السنين، فسيُسمِع صوته -يقيناً وحقاً- للجموعِ المنفلتة، المنفرط عقدها اليوم، ويضبطهم بضوابطه إن عاجلاً أو آجلاً، ويظهر قوة رسالته... وسمِّه -إن شئت- تجديد القراءة السديدة والتفسير الصائب في حقيقة (الإنسان والكون والألوهية) مرة أخرى، واتخاذ الإنسان موقفا يناسب دوره اللائق به في الوجود.

لقد أُرسل حضرة سيد الأنام (عليه ألفُ ألفِ صلاة وسلام) برسالة تتعلق بكل أحد وكل شيء. وكان يوفي وظيفته حقها ويؤديها بعمق فتمتلئ بحبه الأفئدة وتنجذب إليه القلوب. فهو يتفتق تكاملاً شاسعاً في خلقته، وصدقا منقطع النظير في تصرفاته، وربانية تتجاوز جوانبه المادية دائماً في سلوكياته. وهو -فوق هذه الجماليات الظاهرية الباهرة- صاحب أخلاق رفيعة لم يطلها أحد، سماها القرآن الكريم بـ"الخُلق العظيم".. حتى إن مَن يدخل رحابه لمرة واحدة من غير أحكام مسبقة، لا بد أن يدخل تحت تأثيره ويتعلق به إلى أبد. وعنده -مع هذه المحاسن والمعالي- بيان يأخذ بالألباب؛ فإذا تكلم أبكمَ أمهرَ حُذّاق اللسان، فيغوصون في مراقبة السكوت، وينجرفون في تيار جذب قوله.

هيبته عليه الصلاة والسلام

وإليك شيئاً من تفصيل ما قلناه آنفا: لقد وهبه الله تعالى السعة في خلقته الداخلية والخارجية، فهو مهيب في تواضعه، جذاب في شخصيته... حتى إن دَخَلَتْ إلى حضرته أشدُّ النفوس كبراً وغروراً، ارتعشتْ من هيبته، وتصرفت بغير ما نوت وتصورت؛ وإن رسل كسرى المتكبرين ذهلوا وأُلجموا حيال صرح المهابة هذا. ومع هذه الهيبة، وهذا الجد والوقار، كان فيه لين عجيب يجذب إليه النفوس، حتى لَيحس من يعرفه عن قرب بأنه أقرب إليه من الولد والأم والأب وكل حبيب، بل يكاد "يدمِن" عليه فلا يود أن يغادر مجلسه أبداً. أحواله وتصرفاته كلها تبث ثقة عميقة في القلوب، وأقواله وأفعاله وملامحه تدل على حضوره الدائم أمام الله تعالى. يبث الأمان دوماً، وينشر الاطمئنان في الجميع حُزَماً ورُزَماً.

فقد عُرف بالأمين أولاً وآخراً... فالأمن يشع من نظره، وكلامه يدور بلا توان حول الأمن، وفي حضوره تسمع نغمات الأمن. وكانت تصرفاته وعقله وروحه وعواطفه ومنطقه في توازن وانسجام تام. وإن ذكاءه المتقد، وفراسته السديدة، وثباته الذي لا يعرف التردد، عزمه وإقدامه، إستراتيجيته المحيرة للعقول مع تجنبه الكذب والخداع، صبره وثباته حيال أشد الأهوال، وتبسمه في وجه المصائب، وقراءته للملمّات قراءة صائبة، واستخلاصه منها عبراً ملء الكتب، وحلمه الوطيد، ووقاره الراسخ حيال الأحوال الموجبة لأشد العنف والغضب والحدّة، لهي نبذة يسيرة من خصاله وخلقه التي تبرز شخصيته المتميزة بين البشرية، وتفصح عن مقامه ومكانته ووقفته الفريدة التي تناسب هذه المكانة السامية. فله المواقف البطولية حيث يضطرب الجميع ويذهلون، إذ تتبدل بها الهزيمة إلى الظفر، والفر إلى الكر، فترفل رايات النجاح الإستراتيجي في خِضَمِّ المعارك ودخان الحروب.

كان بين أهله رب عائلة لا نظير له ولا شبيه، وبين أصحابه معلّماً ومرشداً كاملاً يدلف شغاف قلوبهم بلينه الأخوي، وهادياً سديد الرأي لا يخذل من اتبعه، وخطيباً سيداً على الكلام، ذا قلب رباني، وحكيما أستاذاً في استخدام العقل، ورئيس دولة لم يعرف مثله، وقائدا عظيما يحول الهزائم إلى انتصارات بحملة واحدة. فأنواع الكمالات كلها تبلغ فيه الذروة العليا، لكنه يتصرف أبداً بين الناس كفرد من الناس، ويعد نفسه واحداً منهم، فيؤذيه -من كثرة تواضعه- أن يُسند

النـــاس إليه –أدبا منهم– مقامـــات رفيعة هو حقيق بها أصلا، فيحذر أصحابه بين فينة وأخرى من ذلك تحذيراً شـــديداً قد يصل إلى حد التوبيخ أحيانا.

كان بمثابة "علة غائية" للوجود، لكنه ما كان يوليه اهتماماً بقدر جناح بعوضة. رفع الســـلاطين إلى العروش وألبســـهم التيجان، لكنه عاش زاهداً أشد الزهد، فكأنه صائم عن الدنيا؛ فأشـــبع و لم يأكل، وألبس و لم يلبس، وهتف بالشـــكر مئات المرات حيال قطرة من نعمة، مستشعرا فضل الله عليه وإحسانه على الدوام. فهو يســـابق الملائكة في مضمـــار المعرفة الربانية والمحبة والخشـــية. أجل، كان في الدنيا، لكنه لم يكن دنيويا، بـــل كان في طريق العقبى... بـــل لم يكن مرتبطاً حتى بالعقبى أوّلا و بالـــذات، ذلك لأن قلبه كان معلقا بربه، وعينه في آثاره وفي أسمائه الحسنى التي تضفي على آثاره ألواناً وصورا ومحاسن شتى. كان ينظر إلى الدنيا وكأنها خليج للعقبى، ويراها وكأنها مزرعة يزرع فيها ويحصد، ويحيل الحاصل إلى الآخرة. وكان يَهُبُّ ويروح ويغدو كالرياح التي تحمل البذور وتطير يمينا وشمالاً لتودعها أمانة للفلق والنماء، فكان يعتني بالفقـــراء ويرعاهم، ويطعم الجياع، وكثيراً ما يبيـــت هو جائعـــاً خاوي البطن. إنه ســـلطان عالَمَي الدنيا والآخرة، لكنـــه إذ ارتحل إلى ربه، لم يورث أهله قصراً ولا عقاراً ولا مالاً ولا ريشـــاً. فقد عاش عيشة تليق به، وقوّم الدنيا تقويما يناسب شخصيته، ورحل منها رحلة توافق مكانته وعظمتـــه. ومعلوم أنه لم يكن تـــاركاً للدنيا تماما، كما أنه لم يكن جامعا لها ومشـــغولا بها قط. فإنه كان يهتم بالدنيا بقدر حجمها وفنائهـــا، ويهتم بالآخرة وما وراء الآخرة بحســـب خلودها وسرمديتها، فيتخذ موقفه منهما بناء على هذا التصور.

ومع مهابته الرائعة المحيرة للعقول الحاصلة من علوّ الأصالة وسموّ النجابة وصِلته الوثيقة بالحق تعالى، كان متواضعاً أشـــد التواضع وكأنـــه يجمع بين الأضداد، حـــتى إن من لا يعرف خصاله وسجاياه المذكورة آنفاً، كان يحسبه من آحاد الناس. كان لا يعير اهتماما بتعظيم أصحابه وتوقيرهم له، فيقعد معهم ويأكل ويشرب، ويســـتر عنهم فوارقه وخصوصياته السامية التي تفرد بها عنهم أشد الستر حتى لا يشعرهم بالتمايز، ويريح مَنْ حوله أحياناً بمُلَح من ألـــوان التجليات الجمالية من العبرة والحكمة والمزاح أحيانا لكي لا يثقل عليهم عبء ما في طبعه من المهابة والعظمة والمخافة؛ فهو يزين عِزّتَهُ بالتواضع، ويلطّف مهابته بالشفقة، ويقدم لونه الناسوتي[1] ليزيد حلاوة إلى شهد مقامه وحلو طعمه.

كان حليما ومأمونا ورزينا، ليّنا أعظم اللين حتى في الأحيان التي تستفز فيها وتثار مشاعر الحقد والكره والغضب، فيخفف شـــدة الطيش وحِدَّةَ الغيظ، ويســـكّن بنظرة واحدة عداوة ألدِّ أعدائه؛ وكان كلما أريد سحبه إلى موقف الخصم قفز إلى موقع الحَكَم. كان عفوّاً وسمحاً ما لم تُنتهك حرمة لله تعالى أو يهضم حق عام. وفي الســـيرة النبوية مئات الأمثلة والشـــواهد على عفوه وصفحه وسماحته.

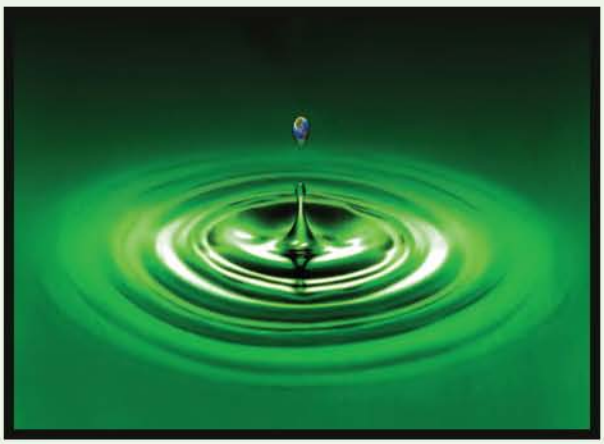

وفاؤه بالعهـــد عليه الصلاة والسلام

وما كان له نظـــير في الوفاء بالوعد؛ فلم يخلف وعداً قط ولو مرة واحـــدة، ولم يرجع عن قول ألبتة، ولم يقل شيئاً ثم خالفه، أو نطق بشيء خلاف الواقع حتى وإن كان إيماء، ســـواء قبل البعثة أو بعد نيله شرف النبوة. فسيرته صرح للأمانة والصدق والوفاء، وحزمه ضد من يخون العهد والميثاق معلوم ومشهور.

كان ســـلطان عالم البيان، ولقد بلـــغ جوهر القول قيمته الحقيقية على لســـانه. لم يمســـك بيده قلما ولا قرطاسا، ولم تطالع عيناه كتابا، ولم يجلس في حلقة درس، ولم يحتج قط إلى أن يقول لأحد "أســـتاذ"، بل كان أستاذ الكل في الكل، وما من شـــيء يستطيع أن يمس أستاذيته الكلية. وفي هذا صيانة من الله لأوامره الإلهية أولاً، وصيانة لِمَلَكات النبي الفطرية ثانيا وتاليا،

من التأثيرات والتصورات الخارجية، حتى لا تُكَدِّر المكتسباتُ الذهنية والمعلوماتُ الأجنبية تفسيرَ الأوامر الإلهية، ولا تتلوّن بلون غير لونها، أو تصب في قالب غير قالبها. فكان أميا بهذا المعنى -ونفوسنا فداء لذاك الأمي-، ولكن له أقوال وأحكام وقررات في شتى الشؤون من أمور الدنيا والعقبى -باعتباره أستاذ الكل- حيرت وأدهشت الكل؛ بدءً من المتبحرين في العلوم وامتدادا إلى فحول العباقرة، وإلى العقول الضليعة في الفلسلفة، وإلى النفوس الصافية والأرواح المستنيرة. والتاريخ يشهد أن أحداً لم ينل من رصانة بيانه، أو يقدح في حكم له، أو يتجاسر على أن ينتقص من إجراء له.

كان خزينة للمعرفة وحوضا للعلم نقيا متلألئا، لم يعترض أحد على إخباره عن الأحداث الغابرة، ولا إخباره عن شؤون الديانات والمذاهب والثقافات والتقاليد والأعراف العائدة إلى أمم بائدة في التاريخ، وما كان لأحد أن يعترض، لأنه رسول الله، ومصدر علمه السديد الذي يصب في ذلك الحوض وتلك الخزينة، هو الله تعالى. فكان في البيان سلطانَ بيان وصاحب القول الفصل، وكان في المنطق صرحَ محاكمة، وفي الفكر بحراً محيطاً كفؤا لضخامة مهمته ورحابة رسالته العالمية. إن عباراته من السلاسة والانسياب، وبيانه من الوضوح والفصاحة، وأسلوبه من الغزارة والتلون والبهاء، بحيث يستطيع أن يعبر عن حقائق ملء الأرض في جملة أو جملتين، ويضمّن شؤونا تَسَعُ المجلدات في كلمات، وينطق بجواهر، وأيما جواهر، ليودعها عند أساطين التفسير والتأويل. وفي حديثه: "أعطيت جوامع الكلم"[2] إشارة منه إلى هذه الرحاب الفسيحة.

وكان الناس يمطرونه بوابل أسئلتهم في كل شأن من كل جهة، فيرد عليهم من فوره بغير أدنى تلكؤ. كلامه سهل يفهمه السواد الأعظم، ويعبر عن مقصوده بعيداً عن التشوش أو التشويش في إيجاز صاف وسيّال. وحين يتكلم يراعي مستوى المخاطبين لكي يفيدهم، من عالم وجاهل، وذكي وغبي، وقليل خبرة وخبير، وشاب وكهل، ورجل وامرأة، فيَبعث الاطمئنان في قلوبهم.

وإن أقواله وخطبه كثيرة، حيث خاض في شؤون مختلفة، وحلل موضوعات متنوعة، لكنه لم يجانب الحقيقة والواقع في أي من أقواله وأفكاره. فلم يستطع أحد أن يلحظ على بياناته وأقواله ما يخالف الواقع، حتى إن ألد خصومه الذين يترقبون زلة منه ليوقعوا به، لم يجرؤوا على إسناد الكذب إليه، بل عجزوا عن ذلك.

والحق أن من صان لسانه وكل تصرفاته عن مخالفة الواقع صوناً أدق من الشعرة، من طفولته إلى شبابه، ثم إلى سن تشرفه بالنبوة في الأربعين، لا يُتصور أن يقوم بادعاء النبوة زوراً. وإن تصوراً كهذا شيءٌ يتجاوز الإثم إلى تعصب كفري أعمى، واستهانة بالعقل والمنطق. هذا، وإن تبليغاته وموضوعات أحكامه رحيبة وسعت الماضي والحاضر والمستقبل، ومحتوياتها متنوعة تتعدى عقول البشر: فهو يتكلم في العقائد، ويضع الأحكام في العبادات، ويتحدث في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والإدارية، وينفّذ ما يقول، ويجني ثمرات ما ينفذ، ويتخذ من التاريخ شاهدا على صواب الأسس التي وضعها فيودع هذه الشهادة أمانة في الضمائر المنصفة البعيدة عن الأحكام المسبقة، وبعد ذلك يصدّقه بختم التصديق آلافُ المفسرين والمفكرين والخبراء المتفننين في فنون كثيرة، ومئات الفلاسفة، على ما قال قول، وعلى الأسس الاجتماعية والاقتصادية والنظم العسكرية والإدارية، والقواعد التربوية التي وضعها. وزد عليهم جميعاً أن ملايين الأولياء والأصفياء يؤيدونه تصديقاً في كل حكم وفي كل بيان لهم، ويهتفون أنهم بلغوا المراتب والمقامات بهدايته. لذلك فإن من يقول له "لا"، فهو إما مخبول لا يدري ما يقول، وإما بائس بسوء الحظ مغسول الدماغ. فما شهد الماضي والحاضر أحدا مثله استطاع أن يقول شيئاً أو يضع أحكاما ثابتة في مسائل كثيرة مختلفة، ولا سيما في موضوعات تتطلب حنكة واختصاصا ومهارة، فيدومَ طرياً ونديا أبداً مع الدهر. وكما نبّه بديع الزمان النورسي رحمه الله: "إن الإنسان قد يستطيع أن يقول شيئاً ذا بال في بضعة فنون أو علوم. لكن حضرة ذاته صلى الله عليه وسلم أدلى بدلوه في شؤون دقيقة تتعلق بالوجود والأحداث كلها، وقال أقوالا نافذة في كل زمان ومكان، وبأسلوب بديع في المهارة والحكمة، وباطمئنان من غير تردد وتلكّؤ، لا يملك حياله من رآه وعرفه، ومن سمعه فأنصت إليه من غير حكم مسبق إلا أن يقول: "آمنتُ وصدّقتُ". ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أغلو

الهوامش

(1) الناسوت: الطبيعة البشرية.

(2) البخاري، الجهاد ١٢٢؛ مسلم، المساجد ٦.

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

الجوّ الذي صنعه الرسول ﷺ والعبقرة الذين نشأوا في جوّه المنوّر

كان الرسول ﷺ يعرف الأيام المقبلة مثلما يعرف يومه، بل مثلما يعرف راحة يده، وكان هذا كيفية خاصة به. فالرسول ﷺ كان يضع دساتير جديدة تبقى نضرة يانعة رغم تقدم الزمان... يشيخ الزمان ولكن يتجدد شباب هذه الدساتير على الدوام.

قام الرسول ﷺ بتبليغ بعض المبادئ الدينية التي وضعها الله تعالى إلى الناس في عصره وتعليمها إياهم، وقام هؤلاء بإيصالها لنا، فرضي الله تعالى عنهم أجمعين. والقرآن يعلمنا أدب عرفان الفضل فيخبرنا أن ندعو لهم ونقول ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحشر: ١٠). فنحن ندعو لهم كلهم انتهاء إلى الصحابة الكرام ﷺ اعترافًا بفضلهم. وعندما نقف عند كل مقبرة ونرفع أيدينا بالدعاء لهم فإننا نعبر بذلك عن امتناننا لهم. لقد أبدى أسلافنا نجاحًا منقطع النظير، وكوّنوا بعد رسول الله ﷺ دولاً متعاقبة. يقول أحد الكتاب الغربيين:

"إن محمدًا ﷺ رجل عظيم حقًا. لماذا؟ لأنه شُكّلت ما يقارب مائة من الدول على أسس المبادئ والأنظمة والدساتير التي وضعها، وكان مهندس مدنيات عديدة، وأرسل الجيوش إلى مختلف أنحاء العالم وعلى رأسها قواد أكفاء نجحوا أيما نجاح في مهماتهم. ولم يكن هؤلاء القواد فاتحين فحسب، بل حملوا

معهم مشاعل العلم أيضًا ونوروا بهذه المشاعل أرجاء المعمورة وزوايا العلم والعرفان."

فهذه بغداد وهذه آثارنا في آسيا الوسطى من معابد وكليات ومستشفيات وجوامع لاتزال باقية رغم محاولة الأعداء هدمها وطمس معالمها. وهذه الأندلس بآثارها القديمة التي تذهل عباقرة العلم والفن... هذه الأندلس بثقافتها وفنها وأخلاقها وباحترامها للقيم الإنسانية العامة... إن ما تبقى من هذه الأثار التي تضاءلت تدريجيًا بمرور أكثر من خمسمائة سنة غدارة لا تزال تأخذ بالألباب. ومن يدري ماذا يقول المفكرون من الفنانين والمعماريين والمتخصصين في علم الجمال حول هذه الأثار الرائعة.

أجل، لقد تشكلت الآلاف من بيوت العلم من بعده وعلى الخط الذي خطه، وظهر مئات الآلاف من رجال العلم والفن وتشكلت مئات من الدول على هدي النظام الذي وضعه... ويعد الأمويون والعباسيون والسلاجقة ودولة القره خانيين والدولة العثمانية من بين هذه الدول، ولا يجوز مقارنة الدين الإسلامي مع الدين المسيحي، فالمسيحية لم تستطع أبدًا تجاوز الكنيسة، فقد أديرت الدولة إما بالنظام الثيوقراطي، أي حسب اجتهادات القسس ورجال الدين، وإما بالنظم الدنيوية الوضعية أي من قبل أناس يحملون أفكار الفلسفة المادية، ولكن رسالة محمد ﷺ ودينه لم يكونا هكذا، إذ أنه تأسس على الأسس الشاملة والعميقة والحية للكتاب والسنة، والمتجددِ على الدوام لكونه منفتحًا على الاجتهاد. فقد يتغير الزمان وتتبدل الصور ولكن محتوياته ومعانيه باقية. فما أن تغرب مدنية في هذه الدنيا أو تزول دولة إلا وتبعتها مدنية أخرى ودولة أخرى... أجل، فمئات من الدول كانت تستمد روحها وفلسفتها ومعنى وجودها منه ﷺ.

لقد استطاع الرسول ﷺ بنظرته الواسعة المؤيدة من قبل الوحي أن يعين الأسس التي تقوم عليها الدولة وأن يستعملها كلاً في مكانه الصحيح والملائم. وشق الطريق المؤدي إلى تهيئة كوادر الدولة وقوادها ورجال العلم والصناعة والفن. وقد ربى في عهده العديد من القواد، ورجال الدولة ونشأ على طريق فتح العالم قواد عظماء بدءً من خالد بن الوليد إلى عُقبة بن نافع ومن عقبة إلى الأحنف بن قيس ومن الأحنف إلى طارق بن زياد ومنه إلى محمد بن القاسم. ولو نظرنا إليه من هذه الزاوية لحسبناه قد كرس وقته للأمور العسكرية فحسب. وقد نظر كثير من مفكري عصرنا -مثل عباس محمود العقاد- إلى عصر النبوة كعصر منفتح على الطاقات الكبيرة والعبقريات العظيمة.

أجل، فإن المدرسة المحمدية هي المدرسة الوحيدة التي استطاعت أن تسمو بالمواهب والكفاءات إلى أعلى المستويات فمن قصد هذه المدرسة استطاع أن ينمي كل قابلياته العقلية والقلبية والروحية وجميع ملكاته الأخرى إلى مداها النهائي...

فأبو بكر ﷺ رجل عبقري في الحرب وفي إدارة الدولة وفي العلم. وكذلك عمر وعثمان وعلي ﷺ؛ أما خالد وسعد بن أبي وقّاص وأبو عبيدة والعلاء الحضرمي والقَعْقَاع بن عمرو ﷺ فكانوا عباقرة حرب... ومئات غيرهم... فكأن ذلك العهد عهد عباقرة... بل هو في الأصح عهد لم يهمل في الإنسان ذرة واحدة من قابلياته واستعداداته وكفاءاته، بل غذاها ونماها بأجمعها فكان عامرًا بمئات من العباقرة.

فإذا لم يكن عُقبة بن نافع الذي فتح إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها بضربة واحدة عبقريًا فمن العبقري إذن؟ لقد أصبح عقبة فارسًا وهو في الخامسة عشر من عمره، وتقلد مهامًا مختلفة ومهمة في عهود عدة خلفاء ووصل إلى ساحل المحيط الأطلسي، وقد اشتهر قوله الذي قاله وهو يغوص بجواده في مياه الشاطئ الأطلسي الذي كانوا يطلقون عليه اسم "بحر الظلمات" إذ قال: "يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدًا في سبيلك."[1]

ومن المدرسة نفسها نجد طارق بن زياد الذي كان عبدًا بربريا، فنراه ينتصر بجيشه البالغ ١٢٠٠٠ جندي على الجيش الإسباني الذي كان تعداده ٩٠-١٠٠ ألف جندي وأن يصل في مدة قصيرة إلى قصر الملك في "طُلَيطُلة".[2] وكان طارق أيضًا قائدًا عبقريًا وفارسًا عظيمًا. والأمر نفسه وارد بالنسبة لعلاء الحضرمي الذي كان قائدًا عظيمًا، حتى قيل في عهد عمر بن الخطاب ﷺ أنهم لا يستطيعون استغلال كل هذه الكفاءات، حتى أنهم اضطروا إلى إصدار أمر إلى علاء الدين الحضرمي بالتوقف عن الحرب في البحرين. ولعلاء الحضرمي تاريخ حياة مليء بالعبر. ويقول المؤرخون بأنك لو نقلت خالد بن الوليد إلى موضع علاء

الدين، ونقلت علاء الدين إلى موضع خالد لما تبدل أي شيء ولما حدثت أي ثغرة.

كيف حدث هذا؟ كيف ظهر كل هؤلاء العباقرة والعظماء في عهد واحد..؟ سعد بن أبي وقّاص كان عبقريا، فلو تتبعت آثاره في فارس لوصلت إلى هذه القناعة... أبو عبيدة بن الجراح كان عبقريًّا... وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، ثم دهاة آخرون في سلسلة العبقريات هذه بعد الرسول ﷺ... ولولا هؤلاء لما كان في الإمكان قطع الصحارى والوصول إلى أسوار الصين وإلى جبل طارق، ولما كان في الإمكان الاستيلاء على كل هذه المناطق في فترة قصيرة جدًّا لا تتجاوز ٢٥ سنة، وما كان في الإمكان أيضًا تأسيس الأمن والطمأنينة في هذه المناطق وإدارتها إدارة جيدة، ولما كان في الإمكان بقاء هذا النظام طوال ١٢ عصرًا في الذروة رغم الدنيا كلها ورغم مقاومة الأديان السابقة له وقيامها بالاعتداء و بالتضليل.

أجل، لقد كانت هذه العبقريات التي كان الوحي منبعها وملهمها هي التي يسرت حكم العالم عصورًا عديدة بقبس من النظام النبوي. فكأن هؤلاء العباقرة أخذ كل منهم قبسًا من شمس الشموس رسول الله ﷺ فأنجزوا مهمات كبيرة وبمقياس عالمي. ولا أدري أيمكن أن نتصور عهدًا مثيلاً لذلك العهد..؟ لا أقول نشاهد ولكن أقول نتصور... نتخيل... فالأسماء التي أدرجتها لكم بسرعة والمهام التي أنجزوها يحتاج كل منها إلى بحوث كاملة. وبين العبقريات العسكرية والإدارية التي رباها الإسلام لم نذكر سوى بعض الأسماء الأولى التي خطرت على بالنا، أما شرح كل تلك العبقريات فعمل يحتاج إلى مجلدات، ولم يكن في إمكان هذا الفصل الصغير أن يستوعب كل هذا، ولم ندخل إلى هذا الموضوع إلا بصورة غير مباشرة وذلك عندما تحدثنا عن رسالة الرسول ﷺ والجوانب المتعلقة بهذه الرسالة، وكل أملي وتطلعي هو قيام أهل الاختصاص بتناول هذه المواضيع وشرحها بشكل واف. وعند ذلك سوف تتوضح المدرسة المحمدية بكل أبعادها وسيهتف كل بُعد منها: "محمد رسول الله." ■

المصدر: النور الخالد، ص:٣٣٣-٣٣٦

الهوامش

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١٠٦/٤.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٥٦٢/٤.

موسم العشق

سيل بشري دفّاق،
يزحف في مواسم الاشتياق
على صعيد العَبَرات
حيث تجيش العواطف
وكالبركان تغور المشاعر
بينما يتنسم الجميع
عطور الجنان في كل مكان.

* * *

أنت قلبُنا الخفّاق وروحنا النابض

كانت ولادتك ولادة الإنسانية أيضا... لقد استطاع القاصي والداني والصديق والعدو أن يبصر بالنور الذي نشرته صوابه وأخطاءه، ويقيّمها على أساسه وبواسطته، فيبلغ بفضله من الاطمئنان مبلغا معينا. نحن جميعا ما كان بمقدورنا أن نفهم الجنة التي نشعر بها في أعماق قلوبنا حق الفهم، وندرك سعادتها الأبدية حق الإدراك إلا ببيانك السماوي... أجل، بشلال بيانك الساحر استطعنا أن نتوجه نحو ما ينبغيه منا الحق تعالى وما يرضاه لنا.

إن كانت أعيننا اليوم تَرِفُّ بتسبيح الله تعالى وتقديسه... وإذا كانت قلوبنا اليوم تنبض بشوق الوصال... فأنت، أنت الذي أشعلت فتيل هذه المشاعر والأفكار العلوية في أعماق قلوبنا... أنت من علّمتنا وأشرت إلى الذرى السامية الحقيقية للإنسان وللإنسانية... أنت من أوقدتَ في قلوبنا جمرات الحب وأذقتنا نشوة الوصال... أنت من كشفتَ للمتوجهين إليك وإلى رحابك بكل توقير عن السرّ الحقيقيّ للوجود... وعلاوة على هذا فقد أشرتَ ودللتَ -آخذًا إقرار وتقدير وتصويب الملايين بل البلايين من الناس- أصحاب الأرواح المنصفة إلى قيم ثابتة لكي يظل كل إنسان على ماهيته الحقيقية.

إن النفوس التي تذوقت حقيقة الحب بفضلك واهتدت إلى آفاق الحياة الروحية الواسعة بدأت تَشْدوا -وكأنها مطبوعة على الحب والتوقير- بترنيمات سامية منبعثة من أعماق الروح وكلمات حكيمة تعبّر عن عمق الأبعاد الإنسانية لديها،

وأضحى أصحابها ممثّلي القيم الإنسانية على مدى العصور، فما خاب وما ضاع من اقتدى بهم. لقد وجد جل العالم الإنساني فيهم وفي أصواتهم وكلماتهم وأقوالهم نبضات وجدانه التي لم يكن قد اكتشفها حتى ذلك اليوم، واطّلع كل واحد بفضلهم على أعماقه الداخلية.

أجل، بفضلك أصبح جميع الناس الذين بدوا مختلفين جدّاً بعضهم عن بعض، بل أصبح حتى الجن وأصحاب الأرواح الطيبة -بمعنى من المعاني- يتكلمون عن معانٍ ما كانت تخطر على بالهم من قبلك ولا تنعكس على أحاسيسهم، وإن انعكست فما كانوا يستطيعون التعبير عنها، وإن استطاعوا التعبير فما كانوا يجيدونها، ولا يضعون كل شيء في مكانه الصحيح؛ ولكنهم أصبحوا يُتقنون هذا بفضلك ويحلون مشاكل ومعضلات عديدة.

بعد أن شرّفتَ العالم بقدومك، وتربّعت على عرش قلوبنا حللتَ رموز وشفرات أسرار المعاني العميقة لمعنى ولماهية الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، وأطلقتَ بذلك الألسن عن عقالها، وعلمتَ الغربان كيف تتحوّل إلى بلابل وعنادل صدّاحة، وأثرت رغبة الصديق والعدو في الإصغاء إلى أعماقهم والتعبير عنها، كل من زوايا مختلفة.

وبفضل قيامك بتأمين ظهور القيم الإنسانية والعالمية المشتركة، وصَهر آلاف وجهات النظر والآراء والمفاهيم في بوتقة واحدة وجمعها حول محور واحد من الروح، فقد أحسّ الجميع بأشياء كثيرة من عالم وأفق أرواحهم. ومن ثم فقد تخلت الإنسانية بأجمعها، بل حتى عالم الجن وعالم الأرواح الطيبة -بفضل المعاني المترشحة من رسالتك وبفضل لب وجوهر هذه الرسالة- عن القوالب الجامدة لبعض المفاهيم فتملصت منها وولجت إلى عالم التغيير والتجديد.

وسواء أشعر به الجميع أم لم يشعروا فإن القسم الأعظم من الإنسانية استطاع تحقيق العديد من أنواع التجديد والعديد من النجاحات بفضل منظومة الإيمان التي وضعتها وبفضل الأهداف الإنسانية التي أشرتَ إليها وشجعت عليها.

وحتى فجر الإنسانية ويومها الذي طلعت فيه كان الظلام يسود كل جزء في هذا العالم. كان الجميع يرتجفون خوفاً من وحشة العدم، ويقلقون من المشاكل التي تحيط بهم وتحاصرهم. ولكن بفضل رسالتك التي كانت تبشّر بحلّ كل مشكلة وتلبية كل حاجة وتحقيق كل أمنية وكل أمل، انشرحت الأنفس وتفتحت الآمال في الأرواح، فبدأت نسائم الأمل تهب على القلوب التي كانت تتقلب على جمرات اليأس، وصدحت أنغام الأمل والسلوان في كل مكان، إلى درجة أن النغمات السحرية التي بدأت تتعالى وتنتقل عبر النسائم كانت تبشّر القلوب الحزينة على الدوام بالسعادة والبهجة، وتتحدث معها عن الحب، أي كيف تُحِبّ وكيف تُحَبّ، وتنفث الحياة في العلاقات الإنسانية وروابطها التي بدت وكأنها تحتضر، وتسند وتحيي المحبة والعشق، وتمد المشاعر الإنسانية -التي هجعت في القلوب منذ عصور- بالحركة والنشاط، وتدعو الناس جميعاً إلى الغوص في أعماق قلوبهم لكي يعرف كل إنسان حقيقته، ويقدِّر إنسانيته حق التقدير.

إن أنفاسك الدافئة المخلصة أحْيت القلوب الظمأى إلى الحب والأمل والسعادة. أما القلوب الظمأى التي انحنت توقيراً لرسالتك فقد أثارت فيها انفعالاً قدسياً، وساقت الأرواح السامية بحمّى العبودية لله إلى تدقيقات وتفحصات جدية، تدقيقات تلتمع وتبرق في الطرق التي تسلكها الأدمغة الباحثة عن النور.

لقد كنت بإيمانك المدهش الذي لا يعرف التردد أو الخور وبأصحابك الميامين الأوفياء الذين وقفوا معك تسعى نحو أمل كبير فوق كل أمل، وهو أن تُسمع صوتك للإنسانية جمعاء. لقد بذلتَ كل ما في وسعك طوال حياتك السنية وفي كل فصل من فصولها بل في كل نفس من أنفاسك العطرة من أجل السعادة الأبدية للإنسانية جمعاء، ولم ينقطع جهدك هذا ووفاؤك وإخلاصك أبداً. وما كان كل هذا لينقطع أو يتوقف لحظة، لأنك كنت تسعى لتحقيق أحلام الإنسانية جمعاء لكي تكون لجهودها معنى، ولكي تحقق الأرواح الظّامئة للأبدية أملها وحلمها... فهذه هي رسالتك، ومن أجلها أُرسلتَ وبُعثت... لتأمين الحاجات القلبية والروحية والمادية للإنسانية، ولتحقيق أملها في الحب والتحابُب، ولتحقيق أحلامها وآمالها في السعادة هنا وفي الدار الآخرة... كان هذا الأمر يشكل عمقاً مهماً من رسالتك، وكنت قد عزمت على تحقيق هذا الأمر.

كانت رسالتك عالمية وكونية، لذا كان كل شخص يأخذ منها حسب سعة قلبه ويقيّمها حسب قابليته وحسب جو قلبه وأحواله. وذلك بفضل الطابع الفطري فيها،

وكون الأحكام التشريعية فيها مسايرة للقوانين السائدة في الكون وموافقة للطائف القلبية والروحية والعقلية الموجودة في الإنسان. فكل قلب، وكل فؤاد يجدها موافقة لفطرته وملائمة لها، ويطلع بواسطتها وفي جوها الروحاني على الأسرار العميقة للوجود. أجل، كل ما سمعناه منك، وكل ما فهمناه من أشياء وأمور عند قراءتنا لتصرفاتك وخُلُقك الرفيع فهمناها وسعدنا بها وفسّرناها، مع أن مصدرها مصدر سام تنزلت منه موجات إثر موجات حسب عقولنا ومستوانا، فأحاطت بأرواحنا واحتضنتها، وداعبت مشاعرنا وأحاسيسنا، وأحسسنا بقربها منا وكأنها نبتت ونمت ثم ترعرعت في إقليم قلوبنا وفي بستانها؛ وشعرنا بدفئها حتى لكأنها توشك أن تتدفق من صدورنا. لقد أحاطت بماهيتنا الإنسانية وتفرست في أعيننا وتمعنت وكأنها سحرتنا بطعمها وبلاغتها من رأسنا حتى أخمص قدمينا. كان هذا الأمر خصلة من خصالك تفردت بها، وسجية من سجاياك لم يشاركك فيها أحد.

استطعتَ أن تخاطب الناس جميعاً خطاباً يعلو على جميع المشارب والثقافات الخاصة، ولكن بأسلوب فائق الجمال سامي الدرجات لا يجرح أحداً ولا يخدش مشاعره... تخاطب كل الناس فتؤثر في الأرواح المهيأة وتوقظها. خطابك بليغ... خطاب ذو رموز خاصة وإشارات وإيماءات تقوم بمضاعفة معنى التعابير وتُعمقها وتُجسدها... لقد فتحت أبواب أسرار الأشياء والحوادث أمام من سيأتي من بعدك، بل فتحتها على مصاريعها أمام بعضهم حتى سموا إلى تذوق نشوة عالم آخر... نشوة لا تبلغها أي نشوة أخرى ولا ترقى إليها. ونحن لا نزال نحتفظ في قلوبنا بهبات السماء وهداياها (الآيات القرآنية) وعندما نقوم بالتعبير عنها وترجمتها إلى الواقع بتعابير جديدة حسب مقتضيات العصر نتذكرك على الدوام، ليس مرة واحدة بل ألف مرة... ومن أعماق قلوبنا ننحني إجلالاً لك وتوقيراً. فهذا حق لك، كما هو واجب على جميع رعاياك وأتباعك الذين تنبض قلوبهم بالوفاء لك.

أنت هبة للكون من قِبَل الخالق جل وعلا لا نظير لها ولا مثيل، ورسالتك وتعاليمك أمانة منه تعالى إليك. لقد أصبحتَ عند الذين عرفوا هذا وأدركوه أعزّ وأحب من أرواحهم، فقد علموا مدى دَينهم لك. لذا فما فتئوا مخلصين لك وأوفياء، وقد حصلوا على أضعاف وأضعاف مقابلَ هذا الوفاء.

ولكن جاء يوم ظهر فيه بعض المختلين نفسيّاً وعقليّاً من جحورهم من منتسبي ثقافات أخرى وقاءوا أقذار كفر قلوبهم وأرجاسها وبدأوا يتحرشون بك ويصمونك —حاشاك ألف مرة– بالبداوة، ويَصِمُون صوت السماء ورسالتك بأنها "قانون الصحراء"، ويحاولون حبسك في عهد معين، ويتجرأون على القول بأنك تعود "لذلك العهد ولذلك القوم"، وشجعوا بهذا عالماً مليئاً بالأحقاد والخصومات والعداوات، واستعانوا على ذلك برسوم كاريكاتيرية شنيعة بعيدة عن الخُلق؛ أيّ تعرضتَ لجحود أتباعك وعدم وفائهم، ولهجوم أعدائك. ولو تركنا الجهود المباركة لسَلَفنا الصالح وأجدادنا الأوفياء جانباً فسندرك بأننا لم نستطع أن نُعرِّفَ العالم بك. وكلما تذكرنا الآن محاولات جبهة الكفر والتهجم عليك تَمْتَمنا: "ما أجحدنا وما أبعدنا عن الوفاء!!"

وعلى الرغم من كل شيء فلا نشك مطلقاً بأن عهداً جديداً ذا جذور معنوية وروحية قوية، وذا جينات صافية... عهداً زاهراً ذا جو وماء وتربة تبشر بعالم جديد قريب من رحابك التي تفوح شفقة ورحمة... وسيكون هذا بعثاً جديداً آجلاً أم عاجلا. لقد بدأ الآلاف بل مئات الآلاف منذ الآن ينتظرون هذا العهد الجديد ويترقّبونه ويعيشون على أمله.

لا أستطيع أنا، ولا يستطيع الآخرون أن يطلبوا منك العفو والصفح... نستحي من هذا ونخجل... ولكننا لم نشك لحظة من سعة كرمك. وفي أصعب الأوقات والأحوال، عندما أظلمت آفاقنا، وهجم الخريف علينا، وخربت الطرق وتهدمت الجسور... حتى في هذه الأوقات لم نصرف عيوننا ولم نبعدها عن تعقب آثار قدميك وكرّرنا قول "كتّانجي زاده":

"أنت عزيزنا... مرشدنا... أستاذنا... سيدنا... نورنا المضيء... ضياء معنوياتنا في الدارين... كل إخواني متفقون على هذا". لنعبّر مرة بعد مرة عن وفائنا لك وإخلاصنا. نواقصنا كثيرة، وإهمالنا كبير، ولكنه سيبقى كقطرة بجانب بحار عفوك وسماحتك. إذن:

مولاي وسيدي!... لا تقطع كرمك عن البؤساء والفقراء!

أيليق بسلطان الكرم قطع كرمه عن المعدمين والمتسولين؟ ■

(*) الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

تراب القبر الشريف للرسول ﷺ / متحف طوب قابي - إسطنبول

حراء
مجلة علمية محكمة
www.hiramagazine.com

أحنوا أصلابكم، واجمعوا شتاتكم، وقفوا في حضرة المصطفى ﷺ
الذي أعطى الدنيا كلّ شيء ولم يأخذ منها شيئا،
وأشعل ضوءا في قلب الضياع الإنساني الحزين.

* * *

الأمانات المقدّسة

اللحية الشريفة للرسول ﷺ
متحف طوب قابي - إسطنبول

نحن نرى أن الماضي والحاضر والمستقبل أبعاد مختلفة لحقيقة واحدة. وعندما نشعر بأبعاد الزمن هذه ونحس بمذاقها، نعيش فيها معاً، ونتذوق رحيقها في آن واحد. ولا سيما الماضي، فإننا حينما نرى آثارا تذكرنا بجذورنا الروحية وهويتنا الأصيلة تتحرك لدينا الخواطر والتداعيات ويزداد إحساسنا بالماضي عمقا، فتمتلئ أشرعة حاضرنا برياح العزم والجهد والثبات، فنبحر نحو آفاق المستقبل الباسم بالأمل.

أجل، ما أن نعثر على بعض الآثار العزيزة على قلوبنا من الماضي الجميل حتى نقبل عليها فرحين، ونتناولها كما نتناول باقة من الورد، نشم رائحتها الزكية، ونملأ أعيننا بجمالها، ونقبلها بإجلال عميق، ونجعلها تاج رؤوسنا؛ فإذا بها تثير في نفوسنا خواطر من الماضي البعيد، فتتجلى صفحات التاريخ أمام أعيننا ناصعة، ونرنو إلى مشاهدها الجميلة حالمين، ونشعر كأننا نعيش الأيام التي كانت تلك الآثار فيها ملء العين والقلب، وموضع التقدير والتبجيل. ويبلغ بنا الإحساس بتلك الأشياء مبلغا تتراءى لنا فيه وكأنها أحياء تتحرك في سكون عميق وتتنفس في صمت. فنقرأ في ملامحها معاني عجيبة ودلالات خفية فنحبها... نعم نحبها وكأنها فلذة أكبادنا وجزء من أرواحنا. وكلما رأتنا مقبلين عليها بصدق وإخلاص أزاحت لنا الحجاب وفتحت لنا الأبواب وكشفت لنا عن السبيل المؤدية إلى أروع التصورات والرؤى وأجمل الخيالات والأحلام، ودعتنا إلى عصورها ضيوفا أعزاء مكرمين. فنلتقي في مكان واحد، نعانقها معانقة الصديق لصديقه والحبيب لحبيبه، وتعانقنا بدفء غامر، ويمتلئ المكان بمعان سامية عذبة، فنسرع إلى ارتشافها كأنها ماء الحياة، ونتنفسها كأنها أنفاس الربيع.

أجل، كلما أقبلنا عليها بقلوبنا، شعرنا وكأن رائحة شذية كالمسك والعنبر تسري في مسارب نفوسنا، وهي نفس الرائحة التي ينتشر عبقها الأصيل في المكان عندما تُفتَح صناديق جداتنا القديمة قدم الدهر. ويخيل إلينا عندئذ أننا في عالم عجيب من السحر، وأن تلك الآثار التاريخية تتحدث إلينا بأفصح ما يكون البيان، وتهمس إلى قلوبنا أسمى المعاني، دون أن تستخدم حرفا أو كلمة أو صوتا يستخدمه بنو الإنسان، فإذا بنا في نشوة غامرة لا نريد مفارقتها أو براحها.

وليست قيمة هذه الأشياء فيما تؤديه من منفعة عملية في الواقع، كما هو الحال بالنسبة لبعض الأشياء التي توزن قيمتها بميزان المنفعة الآنية؛ إنما قيمتها في المعاني العميقة التي تذكّر بها وتخبئها في طياتها وتشير إليها وتدعو لها. ومن ثم عندما ننظر إليها بعيوننا، ونتحسسها بأيدينا، نشاهد عليها إشارات

السيف الشريف للرسول ﷺ / متحف طوب قابي – إسطنبول

من معتقداتنا السامية وخطوطا من ماضينا المجيد، فتنبسط أساريرنا، وتنشرح قلوبنا، ونحطم قيود زماننا الضيق محلقين في أجواء فسيحة وأمداء رحيبة فوق الزمان.

كلما نظرنا إلى تلك الآثار التاريخية التي أهلّت في ناحية من نواحي بيوتنا، أو ملأت أرجاء مناحفنا، تراءت لنا الآمال التي حملتها النفوس سابقا، والرؤى التي اختبأت وراء حجب الماضي، وإذا بنا نشاهد الأيدي وهي تلامس الآثار العزيزة بلطف، والأنوف وهي تشم رائحتها بعمق، وإذا بنا نراهم يتجولون بيننا أو تتجول بينهم في مكان واحد، فتخفق قلوبنا لهذا الإحساس.

إن هذه الآثار التاريخية مرآة صافية تحدثنا عن معتقدات أجدادنا النقية وإيمانهم العميق وثقافتهم المتسامحة وقيمهم العالية. فنقرأ في وجوه هذه الذكريات العزيزة أخلاق أسلافنا وأحلامهم وآمالهم؛ هؤلاء الرجال الذين نسكب اليوم دموعا غزيرة لغيابهم، ولا نجد ما نسرّي به عن همومنا سوى ذكرياتهم.

فما بالك إن كان بين هذه الذكريات "البردة النبوية الشريفة" التي تذكرنا بفخر الإنسانية عليه الصلاة والسلام، وبكعب بن زهير بن أبي سلمى ﷺ صاحب قصيدة "بانت سعاد"، أو تذكرنا بسلاطين المسلمين الذين احتفظوا بها في أجمل مكان من قصورهم طوال قرون وقرون بإجلال كبير وتقدير عظيم حتى حطت رحالها في ديارنا؛ أو كان بينها اللواء الشريف "العقاب" الذي لازم رسول الله ﷺ طوال رسالته المباركة؛ أو كان بينها شعيرات من لحيته ﷺ المباركة والتي تَنافَس الصحابة الكرام فيما بينهم لكي لا يضيعوا شعرة واحدة منها، وقصاصات شعره المبارك التي تناقلتها الأيدي قرنا بعد قرن منذ عصر السعادة الأغر إلى يومنا هذا، وتناولتها القلوب جيلا بعد جيل كأنها باقات ورد حبيبة، وبـــجّلتها أيما تبجيل؛ أو كان بينها السيف المبارك الذي كان صاحب العمامة والقضيب ﷺ يتقلده في جميع الغزوات ولكن دون أن يؤذي أحدا أو يتلطخ بدم أحد؛ أو كان بينها رباعية السعادة التي فارقت أخواتها من اللآلئ المنتظمة في الفم المبارك كعقد الجمان، جراء ملامسة حصاة طائشة انطلقت حبًّا في ملامسة الياقوت أثناء إحدى الحروب؛ أو كان بينها العصا العزيزة التي كان يحملها صاحب العصا ﷺ؛ أو كان بينها القوس المبارك الذي ما رمى به عليه الصلاة والسلام سهما نحو إنسان في حياته السنية إلا مرة واحدة، وذلك ناحية رجل أتى بغية قتله ﷺ، فاستهدف القوسُ الشريف منه غير مقتل؛ أو كان بينها نقش "القدم الشريفة" الذي تسابق سلاطين الإسلام وملوكه ليتوّجوا به رؤوسهم...

وبالقرب من هذه الذكريات الميمونة كلها قدر إبراهيم عليه السلام، وعصا موسى عليه السلام، وعمامة يوسف عليه السلام، والسيف المهيب الذي صنعه

داوود عليه السلام بنفسه، والسيوف المباركة العائدة إلى بعض الصحابة الكرام والعشرة المبشرين بالجنة، والمصحف الشريف الذي كان يتلوه سيدنا عثمان ذو النورين أثناء استشهاده...

إضافة إلى بردة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وقلنسوة أويس القرني ﷺ، وتاج الشيخ عبد القادر الجيلاني، ومَحافظ الحجر الأسود الذهبية والفضية، وميازيب الكعبة الذهبية... أجل، ما بالك إن كان بينها أمثال هذه الودائع المباركة والأمانات المقدسة التي لا يعادل مُلك العالم كله قيمةَ واحدة منها.

أجل، كلٌ وديعة من هذه الودائع تثير في النفس ذكريات وخواطر كثيرة، إذ تحمل معاني جليلة، وقدرا عظيما من الرفعة والسمو. فمن بحث لواحدة منها عن نظير، أو نقّب لها في البلاد عن مثيل فلن يجد لها نظيرا ولا مثيلا، فأنى له أن يقدّر ثمنها أو قيمتها مجتمعة.

وهناك أمر آخر لا يمكن أن نجد له مثيلا، وهو هذه العناية الخاصة التي أبداها أبناء أمتنا الأوفياء سلاطينَ ووزراء وعلماء وشعبا من اليوم الأول الذي شرّفت فيه أراضينا الطيبة. ففي اليوم الأول، ما أن حطت الأمانات الشريفة رحالها في إسطنبول حتى خصص لها السلطان أجمل مكان في قصره، وأجلّها إجلالا منقطع النظير حيث سمّي الجناح الذي نزلت فيه ضيفة كريمة "دائرة بردة السعادة"، وملأ أركان الدائرة بنور قرآني فياض وحيوية إيمانية سامية من خلال تلاوة أفضل الحفاظ للقرآن الكريم بأصواتهم الندية... ومن ثم قدم نموذجا حيا باهرا في حب النبي والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصحبه الكرام.

ومنذ ذلك اليوم أصبح هذا المكان الطاهر، أي دائرة بردة السعادة أو جناح الأمانات المقدسة، ملجأ يأوي إليه المتيمون بحب رسول الله ﷺ باحثين عن الدفء والسكينة، متنفسين فيه أنفاس الربيع، مرتشفين ماء الحياة. نسأل المولى عز وجل أن يذكي هذا الحب في القلوب فتستمر صلة المحبين بهذه الدائرة المباركة إلى الأبد.

أثر القدم الشريفة للرسول ﷺ / متحف طوب قابي - إسطنبول

ولا يصح أن ننظر إلى الأمانات المباركة والزخارف الموجودة في هذا الجناح الميمون كأنها أشياء قديمة مزينة عادية لا تحمل أي معنى. أبدا... إذ أن الجناح برمته، بزخارفه التي تزين الجدران ومقتنياته الموضوعة هنا وهناك بعناية، يبدو للناظر الذواق كحديقة فيحاء صُمّمت تصميما فنيا دقيقا، ونُثرت عليها أزهار بديعة الجمال. لقد صممت الخطوط والأشكال الفنية بتناسب عجيب مع روح المكان إلى درجة تُشعرك وكأن كل شيء هنا خُطّط له مسبقا تخطيطا شاملا من قبل يدٍ عُلوية. كل شيء هنا في موضعه المناسب، وهناك تناغم بين المكان والأشياء، بحيث لن تجد النشوة التي تحس بها والرائحة التي تشمها هنا في متاحف قديمة أخرى. إذ ما أن تلج الجناح المبارك حتى تشعر بأنك دخلت خلوة خاصة في عالم غير عالمنا، وأجواء غير أجوائنا، وجاورتَ ربانيين مقربين إلى الله سبحانه، فغرقت في سحر المكان وما أردت مغادرته أبدا. أجل، في هذه الدائرة التي تشع نورا، كلما أطل الإنسان إلى وجوه تلك الآثار التي لا تقدر بثمن، رأى كأن الزمان الذي يتدفق كالنهر في الخارج قد انكمش وتقلص وأُدخل في فانوس قديم، ووُضِع في زاوية من زوايا الحجرة المباركة؛ وحينئذ ينجذب الإنسان إلى سحر المكان وينتشي بعذوبة روحانيته، ويذوب في بحر من الجمال الوردي السامي.

إن الإنسان الذي يوفّق إلى استنشاق رائحة الجدران، واستشعار الروح الذي تَلبَّسه المكان بحواس قلبه، يسمع أجمل الألحان الشعرية، ويتسامى على طبيعته وكأنه غارق في عالم من الأحلام؛ وتتفتح في جنان قلبه أزهار من المشاعر المتنوعة التي تسحر الناظر بألوانها وتسكره بعبقها الطاهر الشذي؛ فيشعر بنشوة عميقة وقد سرت في كيانه كله، وتنطبع البسمة على شفتيه، ويمتلئ صدره بأنفاس الفرح المقدس، ويقول "لا شك أن هذا المكان صمّمته أيدي الملاكة، وهنا يكمن سر هذه الجاذبية وهذا السحر".

إن الفارس الذي يشد رحاله إلى الخواطر التي تثيرها الأمانات المباركة في إطار هذه المعاني يرفرف نحو آفاق عجيبة، ويشعر بأنه يعيش في زمان آخر غير زمانه، وفي حياة أخرى غير حياته، وفي مكان آخر غير هذا المكان. ويبدو له كأن زمانه الضيق ومكانه المحدود قد انفتقا عن زمان ومكان آخر. نعم هنا لا ينفع إلا الصمت... إذ السالك ما أن يرمي بنفسه في بحار الصمت، ويرفع أشرعته لرياح الخواطر والذكريات حتى يجد نفسه مبحرا في آفاق شاسعة من الشعر الجميل، مصغيا إلى الدويّ الصامت لأحداث ووقائع لا يسمع صداها إلا هو. ويتمثل كل أثر من الآثار المباركة وكأنه شخصية تاريخية ملؤها الدفء والحياة. إن كل شيء حوله في هدوئه العميق صديق مخلص قد فتح ذراعيه ليحتضنه بحب وحنان. ويخيل إليه لحظة أنه لو خطا خطوة صغيرة أخرى سيدلف إلى الزمن الذي وجدت فيه. وإلى أن يوقظه أحد من هذه الرؤيا الجميلة يبقى مستغرقا وسط هذه التجليات السامية والمشاهدات الرفيعة.

إن أبناء أمتنا الأوفياء قد عرفوا الأمانات المقدسة بهذه الأبعاد والمعاني الكريمة، وفهموها بهذا الفهم، فوفّوها حقها من التقدير والإجلال.

وما أن لاحت وديعة من تلك الودائع في آفاقنا حتى هيّجت مكنون حبنا لديننا الحنيف فأسرعنا إلى عالمه المضيء مرة بعد أخرى عبر القرون. ولقد كنا في كل نظرة إليها نجدد صلتنا بهؤلاء العظماء الذين تشير إليهم، ونحس بجلالهم في أعماق قلوبنا من جديد. وحتى في الفترات التي أصيبت فيها هويتنا الروحية بجروح، وتزعزعت مشاعر التبجيل للقيم الدينية... حتى في تلك الفترات لم تتأثر مكانة الأمانات المباركة في قلوبنا وظلت موضع احترام الجميع وتقديرهم دائما.

هذا، وبين أيدينا كتاب يتيح لنا فرصة الولوج إلى عالم الأمانات المباركة حتى شئنا؛ والتحليق في أمجاد ماضينا العظيم مع كل صفحة نقلبها من صفحاته؛ وترتيب الرحلات إلى عصور أسلافنا الذين تدفقوا كأنهار من الأنوار في سبيل نشر النور والضياء في كل أرجاء الأرض؛ ألا وهو كتاب "آثار الرسول في جناح الأمانات المقدسة في متحف قصر طوب قابي بإسطنبول". ونحن على يقين بأنه في كل فقرة من فقراته أو صورة من صوره سيتحدث إلى القلوب المتفتحة بكلام عجيب، ويهمس إلى النفوس الموصولة بجذورها الروحية بألحان وترنيمات ساحرة. وليت شعري ما هي الإيحاءات البليغة التي سيلقيها في أعماق أعماقنا... ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

القوس الشريف للرسول ﷺ / متحف طوب قابي - إسطنبول

حراء
مجلة علمية محكمة فصلية
www.hiramagazine.com

يا براعم الأمل!

ستقومون أنتم بإهداء حقائق الدين وإقامتها في الدنيا مرة أخرى. فأنتم باقة ضوء من منبع نور عظيم أضاء أطراف العالم الغارق في الظلام، وأنشأ شجرة إيمان وارفة الظلال كشجرة طوبى ظللت بأوراقها وأزهارها كل الأرجاء.

كانت كل كلمة لأمتنا في المباحثات الدولية في تلك العهود الزاهرة بمثابة أمر. وستقومون أنتم -بإذن الله- باستعادة تلك العهود الزاهرة والتخلص سريعاً من هذا العهد المظلم الذي نعيشه. فهذا هو ما يأمله الجميع منكم... يأمله من يعيش فوق التراب ومن هو مدفون تحته. بل هذا ما يأمله منكم رسول الله محمد ﷺ وهو يتجول بروحانيته بينكم ويربت على أكتافكم ويبتسم لكم وإن كنتم لا ترونه أو تحسون به.

أنتم تستطيعون نشر الأمن والطمأنينة فيما حولكم إن بقيتم أمناء و لم تنحرفوا عن الاستقامة. أجل، إن استطعتم تحقيق هذا انفتح لكم قلب الإنسانية جمعاء على مصراعيه، وستتربعون في هذا القلب كما تربع أجدادكم من قبل. ولكن لا تنسوا أبداً أن شرط الوصول إلى هذه النتيجة وإلى هذه الذروة مرتبط بكونكم أمناء للأمانة الملقاة على عاتقكم.

فإن كنا نريد أن نكون أمة لها وزنها وكلمتها في الشؤون الدولية المهمة وتلعب دوراً بارزاً في تأسيس التوازن الدولي -حيث أننا مضطرون أن نكون كذلك- فيجب أن نكون ممثلين للحق وللعدالة وللاستقامة وللأمن. ■

المصدر: النور الخالد، ص:١٣٧.

إليه تعود

يا سالك الطريق
يا رجلُ يا مقدام...
لا تبالِ الهموم والأحزان...
ما دمتَ على الطريق سائراً،
وإليه ماضياً... فلا تبالِ الصعاب،
فأنت إليه عائد...
فإذا ما وصلتَ... أخذك إلى كنفه،
ومسح آلامك... وكفكف دمعك،
وفي حظيرة قدسه آواكَ ونَعَّمك...
وبمحبته أكرمك...

***

وردة المدينة المنورة

يا وردة روحي... يا ندى قلبي... يا حبّة فؤادي
أنا الذاكر العميد... والهائم الشريد...
قلبي مزار طيفك... وروحي ملعب سرابكِ
إنّه ما زال يهدهد شجوني... ويكفكف دموعي
ذكراكِ يمسح من ذاكرتي كُلَّ شيءٍ سواك...
فليغبْ كُلُّ شيءٍ إلاّكِ

أنا مذاب عشق... أتقلب في عشقي...
في قيامي وقعودي... ويقظتي ومنامي...
أنا روح هائم في أفق العلاء أحلق
كيف الوصول إليك وأنتَ فوقَ الفوق
ووراء الوراء...؟
حبذا العشق لو يستطيع

سيدي ومولاي... التفتْ إليّ...
لمحة منك تكفيني... قلبي بلظى الفراق
يتحرق... أنينه ملأ الدنيا... وحنينه
جاوز السبع الطباق... جُدْ عليّ...
بالوصولِ جُدْ عليّ... متى يا سيدي...؟ متى...؟

كقلب الطير قلبي... ما أن يَذكر اسمك
حتى يبدأ بالخفقان
فامنن عليّ بريشة من جناحك
لكي أطير إليك... وأحلق وراءك أبدا
كقلب الطير قلبي... ما أن يذكر اسمك
حتى يبدأ بالخفقان

يا وردة حوّلت الصحراء القاحلة إلى جنان
أشرقي على قلبي بألوانك الساحرة
آن الأوان، لتكفكفي عيوني الدامعة
يا وردة حولت الصحراء القاحلة إلى جنان

مجنونك أنا، آه، خادمك أنا
إن رميتَ بجمرة عشق في قلبي
أججتْ جوانحي وكياني
وأنقذَتْني من هذه الرؤيا السوداء
الفارغة من محياك الوضيء
مجنونك أنا، آه، خادمك أنا

عقلي يذكرني بأيام الفراق
فيسبل على روحي سدف الظلام
سيدي متى تكشف عن وجهك الصبوح؟!
فالشمس تميل إلى الغروب،
عقلي يذكرني بأيام الفراق...

آه في الفصل الأخير من كتاب حياتي
آه لو غدا غروبي شروقاً
وقلبي مفعماً بأزهى ألوان عالمك المضيء
حيث ترتفع أصوات الدفوف وترانيم الناي
في كل مكان...
آه، لو غدا غروبي شروقا...

* تستعمل الوردة في الأدب التركي رمزا للرسول ﷺ.

* من ديوان "المضرب المكسور" للأستاذ محمد فتح الله كولن. ترجمة: نوزاد صواش، أديب إبراهيم الدباغ.

كان ﷺ صرحًا للإيمان والحركية

ليس في البشرية مَن قَرن بين الإيمان والعمل الحركي قرانًا لازمًا متوازنا، فريدا من نوعه، إلا النبي محمد عليه أكمل التحايا. فقد ارتبط بالله بإيمان غامر، وآمن بكل ذاته بأنه رسول الله، وسلّم له تسليما مطلقًا، وعمل في كل وقت بشعور بالمسؤولية وطيدٍ ومكين، و لم ينزغه نزغ من التردد والتلكؤ في اعتقاده أو دعوته أو استقامه سبيله أو توفيق الله له. فكان صرحَ صدق وأمان يشهد له الشهود. فمن سعد بمعرفته، صَدَّقَه واطمأنّ إليه واعتمد عليه، واحتسب الإيمان به والاعتمادَ عليه واتباعَه حظوة حباه الله بها.

وكانت الثقة العالية به، واللاهوتية والرصانة في الأسس العمومية التي بشر بها، والاستقامة والجد في حياته السنية، مدخراتٍ وكنوزًا فريدة فيه، جعلت الآلاف ومئات الألوف يهرعون إليه سراعًا من غير توان، لا يأبهون بعاداتهم وتقاليدهم وموروثاتهم الراسخة في دمهم ولحمهم. وكان هذا حدثًا نادرًا لا مثيل له في التاريخ، مؤيدًا أنه رسول الحق تعالى. فينبغي أن ينظر علماء النفس والتربية مليًّا في أسس هذا الانقلاب العالمي الشامل الذي حققه حضرة الذات النبوية، ويتفحصوا علومه ومكتسباته وأفكاره تارة أخرى، وقد عجزوا في عصرنا هذا الوافر بأجهزة التربية ووسائله، عن نزع بضع عادات عن بضعة أطفال!

ولقد نشأ في بيئة حريصة كل الحرص على المناصب والمواقع، ومتحركة دائمًا بحس التوحش، وفخورة بالنهب والسلب، ولاهثة وراء الشهرة، ومتخذة عيش المتعة والثراء غاية وحيدة للحياة، ومنفتحة على الاعتداء والظلم والتشدق والأنانية والحسد والفحشاء... حيث لا يسمع شيء إلا صياح الظالمين وعويل المظلومين وأنين الضعفاء ودويّ القوة العمياء،

كما عبّر محمد عاكف: (في أبيات ترجمتها):

كانت الأرض كلّها في ذلك الزمان،
في بلايا أشدّ من بلايا حاضر الأيام
والبشر أوحش من الضباع طبعًا
فمَن لا ناب له، يفترسه إخوانه من الأنام
والفوضى في آفاق الدنى، والنزاع سارٍ كالوباء،
وكما اليوم في الشرق، ناخرٍ للعظام

الغادرون زمر وزمر، والمُتَمْتِمون بغريزة الثأر أفواج وأفواج، وركام البشر منهم المصابون بحمّى الهيمنة، والظانون الانسحاق تحت ثقل الظلم إطاعة وانقيادًا، والمتسلطون والحاكمون بأهوائهم الممثلون للقوة العمياء، والسواد الفاقد للشعور المستَغَل كالعبيد، والمنفلتون من ضوابط الأخلاق، والمهدِّدون المقيدون للفضائل والقيم الإنسانية العالمية، والعابثون، واللاهون، والمغبونون الذين أُجبروا على أداء العبودية لله في قيود القواعد التي وضعها العِباد، والبؤساء والفقراء... وغيرهم كثير وكثير... هكذا كانت صورة الأرض. فمن خلال هذه الأجزاء البشرية المضطربة التي كل خلل منها ينفتح على فراغ واسع، استطاع هو أن يبني مجتمعًا ممتازًا ومعجزًا هو أكمل ما عرفه التاريخ كله.

فكان يسير في طريق سواءٍ بالأسس التي أتى بها، الفسيحة في لاهوتيّتها وقربها من الله تعالى، المتطابقة مع النظم الكونية العامة تطابقًا دقيقا وتامًّا، الممتدة إلى المدى باعتبار الدنيا والعقبى. فتنفّست البشرية في أجوائه العجيبة هواء الانسجام مع قوانين الطبيعة ممتزجة بالدين والتقوى والمسائل الميتافيزيقية. فليس في رسالته أو في تمثيله للرسالة تصادم مع الأشياء والحوادث، وليس فيها إهمال الإنسان أو إيقاعه في إهمال باعتبار جوانبه الجسمانية والروحانية.

وكان ينشئ من أجزاء متفرقة من أبناء فلسفات وثقافات شتى مجتمعًا منظمًا كالبنيان المرصوص، يباري الملائكة... ويرغم أنف الإفراط، ويلجم التفريط، في جموع بشرية غريبة عن بعضها، يَسْهُل انجرارها إلى العدوان والاختلاف، ويشير إلى العقبى حينما يتكلم عن الدنيا، وينبه إلى الروح حينما يومئ إلى البدن، ويقدر كل شيء بقدره.

وكانت تبليغاته تستوعب أمورًا كثيرة، من العقائد إلى العبادات، ثم إلى المعاملات، ثم إلى الاقتصاد والإدارة والحقوق والعلاقات الدولية وقواعد الحرب والسلم وأسس التربية والتعليم وأصول تزكية النفس ونظم تصفية الروح (في إطار الأسس العامة طبعا)، فكان يبين أسس هذه الأمور كلها بلسان يفهمه السواد الأعظم، ويبرهن عمليًّا بنفسه إمكان تطبيقها بيسر، فيكون خير قدوة.

ومن بعده، تأسست عشرات الدول وحُكمت مئات الشعوب وفاقًا لهذه المبادئ، وبزغت شموس وأقمار في سماء الإنسانية من ملايين الأرواح المنورة، والأدمغة المفكرة، ورجال "العمل الحركي" الفياضين، والفقهاء الأعلام، والعلماء المتبحرين، على رغم أنف الخصوم وحقدهم وبغضهم وغيظهم وتخريبهم وعدوانهم. فمن ساعة تشريفه بالنبوة، وجد نفسه حيال جبهة واسعة وعنيدة من أقرب الأعداء إلى أبعد الخصوم، طافحة بالحقد والكره والعداوة. لكنه لم يتزعزع، و لم ييأس، و لم يأبه لشيء، بل بقي معلمًا وملقنا للرسالة ليقيم المجتمع العملي، ومقاومًا صامدًا في وجه أنواع الخصوم من الركام البشري الذين لا إيمان لهم ولا أمان معهم. وفي هذا الخضمّ، لم يخف، و لم يخشَ، و لم يهلع، و لم يجزع، و لم يتردد طرفة عين، وكذلك لم يقع في الاختبار وإعادة التجربة، والغلط والتصحيح، ومسايرة الباطل وانتهاز الفرص.

و لم يقع في خشية رد الفعل حينما واجه العالم كله بتفسير جديد للوجود، ونادى بصوت حديد -وأرواحنا فداءٌ لهذا الصوت- مُعلنًا الحق في وجه الأنظمة الدينية وغير الدينية، واتهم أمورًا كثيرة في الاقتصاد والسياسة والجيش والثقافة، وبتر وبت في مثل هذه الأمور أنى وجب ذلك. وإذ لم يهتز و لم يتردد قط، لم يدع عذرًا لمن خلفه للاهتزاز والتردد. فوقف صامدًا في التبليغ والرسالة، وصار مَعين أمان واطمئنان للجميع. وتنفس اليقين دائمًا في وعده وبشارته ونذيره، وهمس بأسرار الانتظار المترقب النشط في أذن الذين ينفد صبرهم لاستعجال العاقبة التي يرونها بعيدة، فأنشأ أبطالَ صبرٍ يُعجزون الصبرَ! وكذلك أنشأ أبطال عزيمة تتحزم بعزم النبوة، من أرواح مشلولة، وإرادات ضاوية، وجِبِلاّت عَجولة، بعدما دخلت في فضائه النبوي.

لم ينْحن، و لم يدارِ أبدًا في تبليغه للرسالة إبان عهد الإرشاد الرائق في مكة أو حيال التضييق والحرب والقتال الذي بادر به الطَرَف المعادي. ولمّا ضعضع وحده القيم الكذابة للإرث الغابر والنظام المتعفن القديم وجعلها قاعًا صفصفًا، لقي معارضة رهيبة، وتعرض لأنواع الخطر والتهديد. فلم يعقه ذلك كله عن المسير في الدرب، بل كافح صادقًا وشجاعًا وصار قدوة

الثبات والصمود لكل من قد يهتز، وهو ينسل مهاجرًا من مكة إلى المدينة من بين أعتى القتلة المحصوري الفكر بالقتل والعدوان، أو يحاصره الأعداء في غار "ثور"، وحيثما قطعوا عليه الطريق الطويل مرات إبان رحلته، أو واجهوه بالحرب في "بدر"، أو حينما تصدى للذين عزموا على شرب الدم في "أُحد"، أو تعرض إلى حصار التنكيل في "الخندق"، أو استقبل وابل السهام بصدره في "حُنين"... بل رفع إلى العلياء بإرادته الصلدة إرادة الخائرين، وبدل رياح الهزائم الحاصلة بزلاّت الآخرين إلى نسائم الظفر، وأرَغَم أنف المحتملات القاتلة حين حول رثاء النحيب المشعر بالهزيمة هنا أو هنالك، إلى أناشيد الفلاح وأكاليل النصر.

لقد كان شجاعًا لا يضاهى، ومدبرًا كيسًا بقدر شجاعته. فهو لا يأبه بحياته في مقام، ويحير العقول بتدابير الحيطة في مقام. لم يكن يأبه بالموت، بل كان ينتظره في كل آن. والحقيقة أن نظرته إلى العمر -حسب فهمه للحياة-، هو موضوع تبعي مدخر لخدمة الدعوة، والحياة جديرة بالعيش "لإعلاء كلمة الله" ولخدمة الحق تعالى، وبخلافه لا معنى للحياة على وجه الحقيقة. فهذه الحياة عنده جسر عبور إلى العوالم الأبدية وينبغي أن تقوّم باعتبارها سبيلاً للربح.

ولقد عاش عمره كله ملتزمًا بهذه النظرة. فقام وقعد بشعور "الإحياء"، واكتفى بفرح الآخرين وسعادتهم، وبَذَل للآخرين كل شيء حصل عليه، فأسعدهم وقنع بحياة النزر اليسير... فأكل وشرب ولبس يسيرًا. فحياته كلها تشعر المتأمل بخط عجزه وفقره إلى الله واحتياجه إليه، ولم يتبدل حاله في عمره كله. كان عنده الإحياء أحلى من أن يَحيى، والإطعام ألذّ من أن يَطْعَم، والإسعاد أولى من أن يسعد. فكان يُنفق كل ما يجد على المحتاجين، ويمد يد العون لكل فقير ومسكين، ويقضي دين المدين، ويتمادى في الحب، ويذيب الصدأ عن أصدإ القلوب، فيبدل هذه الدهاليز المظلمة إلى "بيوت للرب" تنشر الأنوار.

ولما رحل فريدُ الكون والزمان ﷺ، هذا الذي جعل حياته السَنِيّة أعظم بركة من حياة ملايين الناس، فرحل إلى الأخرة ودرعه المباركة مرهون عند رجل من أهل الدنيا على دراهم معدودة.

والحاصل أن من ينظر إليه بنظر الإنصاف، ويطّلع عليه بالبصيرة، يظن أنه إنسان فوق البشر، بإيمانه ومعرفته وصبره وحلمه ووفائه وزهده وشجاعته وكرمه واستقامته وتواضعه ومهابته وحديثه وصحبته وحركاته وسكناته وبأحواله كلها، الفردية والعائلية والاجتماعية والإدارية والاقتصادية والعسكرية والتربوية. وهذا بدهي، لأن رسول الله ﷺ:

• هو الوارث التام لجميع الأنبياء والمرسلين السابقين؛ فقد أخذ الله الميثاق من الأنبياء على القبول بنبوته. وبدهي أن هذا الميثاق كان باسم أممهم.

• وهو المرسل برسالة عالمية وأبدية، ولم يُبعث إلى قوم معيّنين خاصة، أو لبلاد معينة حصرًا، كغيره من الأنبياء. والشواهد الصادقة تجدها في كتب الخصائص.

• وهو الرحمة المجسّمة المهداة إلى البشرية، وهو هاديها الأخير. وآيات القرآن الكريم دليل على ذلك، وسيرته السَنِيَّة برهان صريح عليه.

• وهو الرحمة المجسمة الذي صار درعًا واقيا لأمته، أمِنوا به من الهلاك العام من بعده أمانًا لم يعط لأمم الأنبياء من غيره.

• وهو الإنسان الممتاز الرفيع الشأن الذي أقسم الحقُّ تعالى به وحده من بين الأنبياء، والمؤيد بحيازة امتياز "لَعَمْرك". فحياته انعكاس مراد الحق تعالى في مرآة مجلاّة، وبها أقسم تعالى.

• وهو الذي امتاز بأن الحق تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم، وخصه في الخطاب بعنوانَي "النبوة" و"الرسالة". وفيه عبرة للمؤمنين للأدب معه.

• وهو الذي أوتي "جوامع الكلم"، بمعنى البيان الجامع البليغ الوجيز، كما أشرنا فيما سبق.

وهو الذي نُصِر بالرعب في قلوب الأعداء من مسيرة شهر من الأرض، وهذا لطف وعناية خاصة به من الحق تعالى.

• وهو وحده صاحب الحظوة باستحالة اقتراب السيئات منه، بالإضافة إلى أنه كان الوسيلة للانفتاح الدائم لباب التوبة من الذنوب.

• وهو الذي أوتي الكتابَ المحفوظ بحفظ خاص والمصان عن التغيير والتحريف والتبديل إلى يوم القيامة، متميزًا بذلك عن الكتب الأخرى.

• وكذا، هو المكرم بشرف الرؤية والاطلاع على أعماق الأخرة كافة وهو في الدنيا. وقد كوفئ في لطف مقام المعراج بكرامة عمق عبوديته وبالمواهب هناك في ذهابه، وبثمرات رسالته كهدايا حملها معه في إيابه.

مفتاح الكعبة المعظمة / متحف طوب قابي - إسطنبول

ولقد حظي -مع هذه الخصائص التي هي قطرة من بحر- بدرجات ومقامات كثيرة كاثرة كمعجزة القرآن الكريم والمعجزات الكونية، فإحصاؤها يستوعب مجلدات. والحقيقة أن أعماقه كلها تنبعث من رحاب وجهته الملكوتية. ومن هذه الوجهة، يعرض ماهيةً يضيق عنها كل تعريف وتوصيف. فإن ماهيته أرفع علويةً من الملائكة، وتَعيُّنَهُ أقدم من الوجود كله، وأوله كله. فكون وجوده نورًا أوّلَ ونواةً، عيانٌ بيانٌ. وبه تحرك أولاً تسطير القلم المقدس، وبه تحقق البرنامج البشري، وهو البرهان الصريح الأبهى لسلسلة النبوة على الوجود الحق. هو أول مرآة مُجَلاّة لحضرة ذاته سبحانه وتعالى. فهو أصفى وأشفّ محلٍّ لتجلي الصفات الإلهية، وهو أفصح ترجمان حاليّ وقاليّ للحق سبحانه وتعالى، وهو رحمة الله تعالى المجسمة في الدارين، ورمز إتمام لطفه ونعمه علينا.

وبه عُرفت أسرار الألوهية كلها في تمام وضوحها. وبه تنورت العوالم وانقشع الضباب والدخان الظاهري، فبانت حقائق الوجه الآخر للكائنات عيانا بيانا. وبه أدرك التفصيل التام لكلّ الأشياء التي عُلِّمَتْ للنبي آدم عليه السلام إجمالا.

فهو الوسيلة العزيزة الوحيدة التي تُوصلنا إلى الحق تعالى من غير حَيْدٍ وزيغ. وعنده مفاتيح أسرار الخزائن الإلهية. وهو المستودع الأمين على سر مبدأ الوجود ومنتهاه.

هذا الذي لا يضاهيه أحد، وجْهةُ قبلةٍ جعل الحق تعالى طاعته من طاعته. أضاءت الكائنات بالأنوار التي نشرها فصارت كتابا، وقصرًا منيفا، ومَعرضًا، وتنور ذاك العملاق المظلم الأعمى. فبفضله صارت الظلمات ضياء، والتقت السماء والأرض في أفقه الوَضّاء التقاءً نهائيًا.

هو الذي رسالته القرآن. وهو الذي أُفقُه العرفانُ. وهو الذي بيانه برهان. وهو وسيلة سعادة الدارَين. هو الذي نال تلطيف الحق تعالى بألف وسامٍ معجزةٍ، وارتبط اسمه ببلاغ القرآن، فيذكر معه بالذكر الجميل المحمود إلى يوم القيامة. هو مدار شرف الإنسانية، ونقطة مركز حقائق النبوة. هو قائد عسكر جيش الأنبياء وهادي الإنس والجن، الصادق الذي لا يضل معه أحد. "أمير اللواء لجيش الأنبياء" كما عبر عنه "فضولي"، وكتابه أعظم هدية من الحق تعالى، فإنه محل التجلي "للروح الأعظم"، وتبليغه إكسير الحياة لأرواحنا. وبه استيقظت الإنسانية على القيم الإنسانية الحقة، وبه اصطبغت بالصبغة التي يرتضيها الله تعالى. ففي غيابه الحسرةُ الخالصة والهجران المحض، وفي الانفلات منه الضلالةُ الصريحة والخذلان المبين.

فهو النقطة المركزية للأسماء الإلهية والصفات السُّبحانية. وهو النجم القطبي في سماء النبوة. الظهور والحقيقة الإجمالية الأولان ترعرعنا تعلقًا به، والعناية الإلهية المجسمة الأخيرة عُبّر عنها به، ومفتاح الشفاعة الذي يفتح كل باب يوم القيامة سُلّمت (وتسلم) إليه.

الرسالة التي حَمّله الحق تعالى إياها متميزة عما حُمّل بها الأنبياء جميعًا، وتَوَجُّهه تعالى إليه فيه تكريم وإعزاز. فحين يكلمه ربه يكلمه بأسلوب خاص يعزه به ويعلمنا نحن أدبَ الخطاب معه. فهو المخاطب العزيز بأفق التكريم والتلطيف بخطاب: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم، ١-٤). فهو مداد القلم الذي كتب به الوجود، وروح ومعنى بمثابة الغاية لكتابة أسطر الكائنات ومعناه، وأفصح ترجمان لمجاهيل ظهور الأسرار الإلهية، ومخزن معرفة الحقائق اللاهوتية. هو خير شاخص للمنصب السامي في الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)، وأسطع مظهر لمقام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (الفتح: ١٠)، وأرفع إنسان في

ذروة مرتبة الرضا، والممثل المشع بالأنوار لرضوان الحق تعالى، والنور الهادي للسائرين، بفحوى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى: ٥). وهو بحقيقة مضمون: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، المفتاح السري والباب للعوالم الرافلة بالإيمان والمعرفة في الدنيا، وبالجنة وجمال الله في الأخرى، والوسيلة النورانية لحظوظ ما بعد الباب كافة، والمفسر للحقائق التي لا يدرك كنهها، والمفتي الخاص لعالم الذات (سبحانه)، والشروق المنور لأفق الصفات، والمرشد الهادي المؤتمن لمن اتبعه، والإمام القبلة لأهل التوحيد، وشعلة النور الإلهي المبدد لظلمات الضباب والدخان المحيط بعوالم الإدراك والإحساس، والخليل الوفي والخالص للواهبين قلوبهم للحق تعالى، والخصم الألد للشيطان والشيطنة، والسور الحامي لمن احتمى به في الدنيا والعقبى، والشفيع والموئل للمذنبين.

به خُففت التكاليف الثقيلة التي ما كان النهوض بأعبائها مستطاعًا، وبفضله رُفع عن الأمة الخطأ والنسيان والسهو. وفي مناخه وإقليمه بَدَّل العفو والعذاب لونه، ووقع في كل صدر رجاء العفو.

هو المدعوّ الخاص الذي دعاه الحق تعالى إلى وليمة السموات، وهو المار مر الكرام بـ "قاب قوسين" حيث تشخص إليه الأبصار. ومأدبة "سدرة المنتهى" هبة مهداة إليه وحده، وما رآه في مضمون ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (النَّجْم : ١٧) من غير دُوار في الرأس أو غَبش في العين، رصانةٌ ووطادةٌ خاصةٌ تلطّف

الله تعالى بها عليه. شَـــاهَدَ ظهورَ الآية الكبرى بخصائص ذاتها، فما عشيت عيناه البتة... وإذ ذاك صار "المشارَ إليه بالبنان" في أهل السماء كافة. معه صار جبريل -لأول مرة- رفيقًا وخادمًا لبشر في رحلة سماوية لا تدرك... وكان هو في سفره هذا يمضي إلى الماوراء عابرًا عوالم المادة والمشهودات بسرعة تتعدى سرعة ضـــوء البوارق.. فيرى ما لا يُرى. فـــ "ســـدرة المنتهى" أول منـــزل، و"قاب قوســـين أو أدنى" ذروةٌ يستسلم فيها العقل، و"لقاء الله" حظوة تتعدى أفق إدراكنا وفهمنا. وسيد هذا كله (بتعبير الشيخ غالب، مترجمًا من التركية):

"هو سلطان الرسل الملك الممجّد،
للبائسين العز السرمد،
في الديوان الإلهي، العميد المعمد،
الأحمد المحمود المحمد".

إنه قد رأى... ورجـــع إلينا ليُرينا ما رأى. وإنه قد سمع، وعاد ليُسمع أرواحَنا ما سَمع. فهمس في وجداننا بأسرار الأول والآخر، والظاهر والباطن. هو أهم رمز للأول، وهو مرآة الآخر البالّةُ للأنوار. هو أجهرُ صوتٍ داعٍ للأحدية الذاتية والواحدية الصفاتية، وهو الإنسان الكامل الحقيقي المستودع الأمين على علم الذات والصفـــات والأسماء. هو منذ التعين الأول مهاجر أفق الإنســـان بعنوان "أحمد"، وضيف المدينة من مكة باســـم "محمد"، وصاحب لواء الحمد من البرزخ باسم "محمود"، وقيّمُ أستار الجنة وجمال الله، ومنهلُ فيضِ العوالم الروحانية والجوهر الأصل لعالم الجسمانية بأسمائه الشريفة كلها.

فيا لب الوجود ونواتها، ويا ثمرة شـــجرة الخلق والصوت الجهوري لحقيقة التوحيد!

لولاك ما كان لنـــا ولا للكائنات معنى. ولقد قرأنا ذواتنا، ووقف كل منا -إن استطعنا- حسب موقعه في الصف الصواب بفضلك أنت. بقدومك وضح الوجود والحوادث وزال الغبش عنها. بتشـــريف مجيئك تبدلت ألوان الأشـــياء وصارت لسانًا فصيحًا تنطق باسم ماوراء الوجود.

ولئن لم يسقط لك ظل في الأرض، فإننا نجونا بفضل ظلك من السقوط ومن الهلاك الأبدي. وإليك أُوكِلَ منذ الأزل حَلُّ عقدة الكائنات المتشابكة، وإليك أوكل تقديمها وتثمينها. والذين جاءوا قبلك اكتفوا بتهجي مجملات هذه العقدة المتشابكة... وأنت الذي حللت العقدة وفصلت المجمل. وإليك سُـــلّمت مفاتيح الدارين بالتقدير الأول والتسليم الآخر... فأنت مُفَتِّح باب الدنيا ومرشد سبيل الآخرة. وصرت -برسالتك- الناطقَ باسم حقيقة التوحيد ومُخَلّصَ الجن والأنس.

وقبل قدومك إلى الدنيا وتشـــريفك لهـــا، نادى مئات بل أُلوف من أصحاب الوجوه النيرة بدعوى التوحيد، لكن أحدًا منهم لم يبلغ مبلغ داوُوديَّتِكَ[1]. فقد كانت لمواهبهم حد معين مـــا كان لهم أن يتخطوها، فيصلوا إلى آفاقك. وقد ســـعوا في ســـبيل نشر رســـالاتهم وتبليغاتهم أعظم السعي، وتخطوا ما لا يتخطى. فمنهم من قطع عليه الســـبل، ومنه من قطعت رقبته، ومنهـــم من ارتحل إلى عالم الآخرة وما زال في بداية الطريق أو وسطه، ومنهم من لقي تمردًا عنيفًا، ومنهم من رُجم بالأحجار حيثما حل... كلهم توتر وانشد بالعشق والشوق في كل آن، وذاقـــوا -وهُم على قيد الحياة- مـــرارةَ الموت مرات عديدة. وأكثرهـــم وجدوا مـــا يبتغون ونجا بفضلهـــم الألوف المؤلفة من البشـــر. وأنت وحدك من بينهم أسمعتَ صوتك القارات المختلفة ووقفت منتصبَ القامة من غير اهتزاز، ولم يتخلف من أصحابك تائه في الطريق إلا عدد من المنفلتين.

كان ينبغـــي إنجاز عمل عظيم، فَكَدَّ من اتبعوك كَدًّا كلهم أجمعون، وسعوا بلا فتور، وركضوا، ولكن لم يتعبوا قط، ولم يتخلفوا عن المســـير البتة؛ فهم يليقون بـــك وأنت تليق بهم. وتحبهم ويحبونك. كأن يد القدرة أَعَدَّتْـــهم لصحبتك -وهَنَا الله شـــعور نشـــوة الصحبة هذه في قلوبنا- فكانوا جديرين بصحبتك ولائقين بها. وحين ســـرتَ إلى الوصال فرحًا كـــ "ليلة العرس"[2] رنـــوت إليهم بجانب قلبك، فبكيت قبالة تلك الوجوه الناضرة.

لم يكن المعراج من نصيب أيّ مبارك من قبلك... فطفتَ وشـــاهدت كل ما وراء الفيزيقيا في أفق الرؤية بالعين. لكنك لم تفتـــأ تذكُرهم وتذكر من يأتون مـــن بَعدُ، حتى في رفراف تلك المحاســـن التي تبهر العيـــون بضيائها. ولم يخمد في قلبك لهيب الرغبة والشـــوق في أن تُرِيَ ما تَرى وتُســـمِع ما تَسمع وتُشْعِر غيرك بما تَشْـــعُر به. ما أبدع ذهابَك وإيابك وفتْحَك فرجة في باب الماورائيات لأصحاب الأرواح السامية! فرُحتَ كمـــا أنت وما يلق بك، ورجعت كما أنت، وفي هذه الرحلة السماوية الفريدة في تاريخ البشرية طرًّا، ارتبطَتْ ألطاف الأزل بأنفاســـك... ولم ينِ مَن في الســـماوات والأرض مِنَ السلام عليـــك توقيرًا، ومن انتظار التباشـــير. كانت الأنوار فوارة في الأطراف كلها، والأضواء هاطلة في الأرجاء كلها، طافحة على

كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط/ متحف طوب قابي - إسطنبول

العصور جميعًا. ونحن حفظنا رجاءنا في تساقط قطرات من حُزَم تلك الأنوار فوق صدر هذا العصر العفريت المارد، وسنبقى نرجو ونأمل. فأنت وفيّ.. ولن تحرم عشاقك في هذا العصر وأنت تهطل كرمًا وعناية وودًا على الأرجاء كلها... وفعلاً لم تحرمهم ألبتة. فإن من يسير إلى النور منّا، يسير بضيائك.. وإن كنا نحيا —ولو في الجملة– فهو بانتسابنا إليك.

يا أيها النبي المبارك المحلق في الأعالي أبدًا!

أنت روح الروح لنا، ورسالتك دواء لأدوائنا المزمنة، نرجوك أن تأتينا كَرّة أخرى، فلا تدَعنا بلا روح... نرجوك أن تتكلم مرة أخرى، فلا تدع عبيدك في مضض الهموم. في طريق مسيرتنا كثير من المتربصين بنا الداوئر، وعظائم من نيران الفتن تغشي آفاقنا بدخانها... ونحن نكدح في السير مهما كان، نسعى مرة، ونكبو أخرى... فاجعل معيّنك علامات لنا في طرق سيرنا، وأَشْعِر قلوبَنا بطمأنينة دلالتك وهدايتك إلى السبيل. ولقد سار في هذه الطريق الألوف ومئات الألوف، وعبروا منابت الأشواك والعضاه، فقطفوا ورودًا فضلاً وزيادة، أو تعبوا وأهكوا مرات ومرات، واهتزوا وارتعشوا أحيانا... لكنهم كوفئوا دوما مكافأة الساعين الجادين الكادّين. وأنت أنت في بداية طريق المفاجآت هذه، وأنت في نهايتها، وأنت في قرار قلوبنا أبدًا، تعززا ودلالاً، وإن غبت عن العيون. فإنْ كانت قلوبنا مازالت تنبض، فهي مما سقيتَ أرواحنا من إكسير الحياة. وإنْ كانت صدورنا مفتوحة لك، فبِفضل جاذبية رسالتك واستيلائها على الألباب. ولولا صوت ندائك لنا من فوق قمم القلوب، واستشعارُ آفاق أرواحنا بأنفاسك المُحْيية، لاصفررنا كالأوراق التي يلتهمها الخريف، ولصِرنا سببًا لهبوب أنسام الحزن في أفقك. وكم نتمنى ألا نتطاير أشتاتا مع الخريف، وألا نكون وسيلة حزن يطرأ عليك... لكن هيهات هيهات!.

ولقد جئتَ لتنفخ الروح في القلوب الميتة، ولقد نجحت فعلا في ذلك بما اعتمدت عليه من منبع المدد والعناية... فانظر الآن إلى الجنائز الحية التي تجوب حيث رفرفت الحياة زمانًا كبساتين "إرَم"! وإلى الغربان تنعق عنادًا للبلابل! وإلى ضجيج مهرجانات الوطاويط في الأرجاء!... فتعال رحمة بحالنا، ولا تُهلك —بغيابك– الطالبين للحياة! ففي كثير من النواحي التي كان اسمك يحلق في سمائها حتى وقت قريب، إذا بالشياطين ترفع أعلامها فيها... وتسقط الدنيا في أحابيل إعدام الروح والمعنى. إن إطلالك مرة واحدة على الأرواح يبدد ألاعيب الشيطان، ويبث الحياة في المكبوتة أصواتهم وأنفاسهم منذ عصور. وكم زُمر حائرة تجوب في الشعاب الصعاب ظانين أنها الطريق، وكم زُمَر من غير طريق ألبتة!. وعواصف النفاق تهب في كل جهة وصوب، والشتاء الزمهرير ينفث النوحش بلا كلل. وأبناء "فاوسْتْ" أغرار أكثر غرة من ذي قبل، و "مفيسْتو" أحذق الحاذقين! وإنا مغلوبون دائمًا، وندفع ثمن الرجعة دائمًا! فكأننا مرغمون على دفع الأتاوة... فمنذ أن فتحتُ عينيّ، رأيتُنَا

نُهـــان ونُذَلُّ كالأيتام في مائدة اللئام، ورأيتنا نَعْلَق في شِـــباك الأفكار الخؤونة. وكيـــف نُيتّم في مائدة اللئام وأنت موجود؟ وما معنى فقدان الصاحب الحامي والحكم لك؟ كلا.. لســـنا أيتامًا على مائدة اللئام، ولســـنا من غـــير صاحب حام... بل نحن كأمثال أولاد الشوارع الذين انتزعوا أنفسهم من مآويهم الدافئة وألقوها إلى الدروب... ولن ننجو من تعاطي المخدرات هناك وهنالك، ومن ظلم أنفسنا، إلى أن نعود إليك ونستنشق روائحك الوردية. قطّاع الطرق يصولون في كل ناحية، وهرير السراق والمشْؤومين يُســـمع في كل جهة. أباحوا كل شيء، حتى نهبوا كل شـــيءٍ... وكانت قلوبنا مما نهبوا!. "عقل المعاد" مهيض الجناح في هذا الزمان. الوجدان في مضطرب الخفقان، وأرواحنا في شِـــباك الهذيان... فافتح فاك وأرســـل إلينا نفحة طريّة من رائحة أنفاســـك تُوقظنا بهـــا لنعود إلى ذواتنا. قانون الفنـــاء لن يحول دون قوة تأثير روحك... ولن يقدر أحدٌ على محو اسمك من القلوب. أنت هبة الأزل إلينا هديةً لا تُقدَّر بثمن، وأنت راعي بســـتان الآباد. وبكلماتٍ منك يُبدِّل الشوك طبعَه فيغدو وردًا... وإذ تنطق تكون بيادر الأكاذيب كلها رمادًا.

لجأنا إلى أعتاب بابك... نتوسل إليك أن تُكلمَنا كما كلمتَ أصحابَك متجاوزًا بُعدنا عنك. فمن بين شـــفتيك الشريفتين تخرج الكلمة التي تُبطل سحر سَحَرة الأقوال، وتُحَلّ عُقَد ألسنة المحكوم عليهم بالخرس –حتى إن لم يستحقوا ذلك–، وتنطلق الأصوات تنضد خطبا عصماء باسمك. وكم عصورٍ ميتة حيَّت بأنفاســـك –فَدَت نفوسُـــنا تلك الأنفاسَ–، وكم مرةً تَراجَع إســـرافيلُ خطواتٍ إلى الوراء ووقف توقيرًا لســـماع أنفاسك الداوية بصـــوت صورِك أنت. وكم كرّةٍ انبتت القفار القاحلة جِنانا وحدائق بأنفاسك. ولســـت أدري هل تُعِدّ "الرجاء في كرّة أخـــرى" وقاحةً؟ وإنما إن تكُ وقاحة، فلا شـــيء فيها، وهي هينة بالنسبة إلى غيابك عن قلوبنا. نحن بذور سائبة تنتظر لواقح... وأنت الرياح مرســـلة للّواقح. نحن أجساد ميتة تنتظر الإحياء، وأنفاسك إكســـير الحياة لنا... فهُبَّ فوق رؤوسنا، وأرنا سبيل الانبعاث، وأمطر علينا غيثًا زخاتٍ وزخاتٍ، ودَوِّ فينا ببشرى ربيع جديد. نحن نترقب مفاجآتِ تلطيف وإكرام، ورؤوسنا نضعها حيثما ستدوس قدماك، وعيوننا ترقُب حيثما سيسطع ظهورك المرتقب.

هذا العالم عالمك... فأيّ قولٍ، وأيّ صوتٍ لغيرك في عالمك أنت؟ فمذ وقع ظلك على ســـطح الأرض لم يبق للنبي سليمان إلا الاســـم. السِّـــكة عندك، والختم عندك، فما ضير العسكر المقابـــل وإن كان على قائده الإســـكندر؟ وإذ تنعكس أصداء صوتك الداووديّ أناشـــيد في كل العـــالم، هل من حاجة إلى داود؟ ومـــادام القول قولك، أمن حاجة إلى أيّ متكلم غيرك؟ ونحن الساقطون أرضا، لن يقيمنا على أقدامنا غيرُك... وظَهْرُ الإنسانية المقصومُ المُحْدَودِب، لن يُقوّمه شيء إلا همتك.

وإن ظلك لرؤوســـنا –وإن من بعيدٍ– صار نفخة "انبعاث من الموت". وإن ولادتك الحقيقية ستطفيء الشموع الشيطانية كلها، وتحفز الأرواح المدفوعة إلى الظلمات نحو نور لا ينطفيء. قد جعل الله النور الذي يضيء الدُّنى معك. زِرُّ نبع النور الذي يضيء الدنى تحت لمســـة يدك. ولئن سألت فالله يشاء... ولئن قلت فإنا سماعون مطيعون... فاسأل حتى تتكلم المشيئة الإلهية، وقل حتى تُسمِع الآذانَ قولاً سديدًا.

أنت عند الحق، وعند الخلق، خير من الدنى كلها. نحن فداءٌ لدلالك وتعززك، وأنت إكسير حياتنا. يد المسيح كانت تُحيي أجســـاد الموتى بإذن الله، وأنت صرت إسرافيل ينفخ الروح في القلوب الميتة منذ ســـنوات مئاتٍ وألـــوفٍ. فتعال الآن وأذع صيتك كرة أخـــرى في العالم أجمع، حتى تنطفيء نيران النفاق والشقاق والفتنة، وتتسربل كل الأرجاء بلون قريتك.

وإن مـــا قلتُ هو صدى بؤســـي، لكن رجائي هو الرجاء العام. عرفناك رحمة الرحمن للعالمين أبدًا، وعرفنا أنفُسنا سائلين متسولين في الباب:

"أكرِمْ يا سلطاني ولا تقطع عن كل بائس متذلل...

وهل يليق بنبع الكرم قطع الكرم عن متسول؟"

"ربنا آتنا من لدنك رحمةً وهيّء لنا من أمرنا رشدا، واجعلْ لنا من أمرنا فَرَجًا ومَخْرجًا، وصلِّ وســـلّم على ســـيدنا محمد صلاةً تكون لك رضاءً ولحقِّه أداءً، وصلّ وســـلّم أيْضًا على جميع إخوانه من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، آمين، يا مُعِينُ". ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أغلو

الهوامش

(١) نسبة إلى النبي داود عليه السلام المشتهر بحسن الصوت وجَهْوَرِيته (المترجم)

(٢) ليلة العرس: رمز اســـتخدمه جلال الدين الرومي، إشارة الى الفرح بالانتقال إلى العالم الآخر كالفرح في ليلة الزفاف. (المترجم)

النعل الشريف للرسول ﷺ / متحف طوب قابي - إسطنبول

حراء
مجلة علمية محكمة تصدر
www.hiramagazine.com

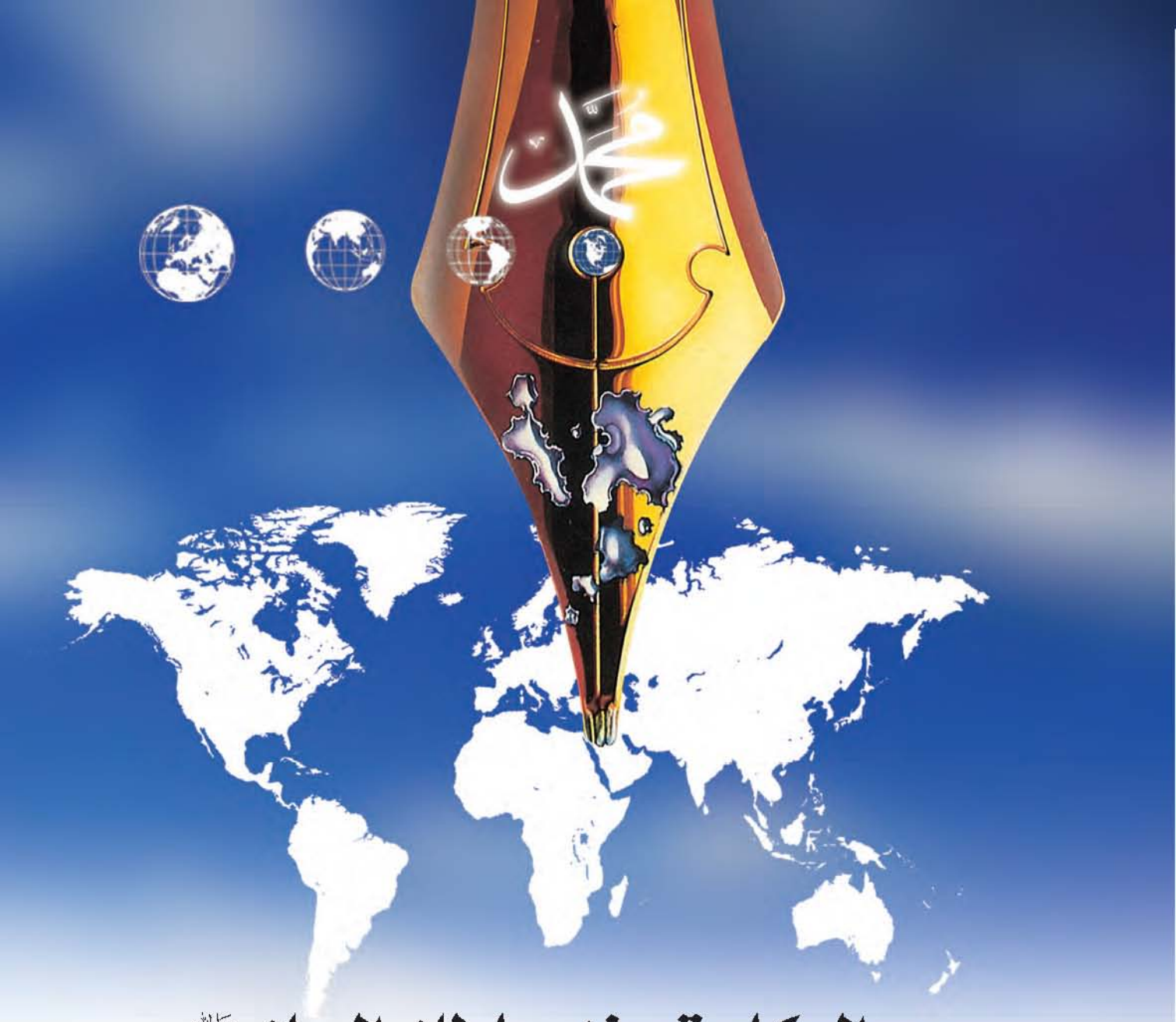

سحر الكلمة عند سلطان البيان ﷺ

من المظاهر الباهرة لفطنة رسولنا ﷺ هو أنه أوتي جوامع الكلم.

أجل، لقد كان سيد البلغاء. وكيف لا وقد اختاره الله ترجمانًا لكلامه ولكلماته. لقد أبدع الكثيرون حتى الآن الكثير من أروع الكلام وأبلغه وأجمله، كل حسب درجته وموهبته، ولكن هناك عمق آخر ولذة أخرى وحلاوة أخرى في كلام سيد البلغاء ﷺ.

ولقد كان بيانه عذبا، وتعابيره ساحرة تدير الرؤوس وتخلب الألباب وتخفق لها القلوب حتى لتكاد تقف، وتستسلم له العقول، وتحيا به المشاعر الإنسانية وتنمو، وتعلو الأرواح به وتسمو وترفرف. لقد وهبه الله تعالى قدرة بيان جعلت مستمعيه المحظوظين يستمعون إلى بيانه الجامع الآسر للقلوب وكأن على رؤوسهم الطير، تغمرهم مهابته فينصتون له وقد انعقدت ألسنتهم وسحرت نفوسهم. عندما يتكلم ويسرد جواهر الحكم لا يملك أرباب العقول إلا الإنصات إليه. وعندما يصف الخير والجمال والصدق يأسر بحديثه العذب الخلاب الأرواح. وعندما يهاجم الشر والفساد بكلماته النارية يُغرِق الكفر والمنكر في مستنقعه ذاته. أما عندما يزأر ببراهين دعوته ورسالته يفرِّق خفافيش الظلام ويخرس أصحابَ الأرواح المظلمة.

كان ﷺ يدرك أهمية ما خصه الله من ألطاف ونعم إدراكاً واعياً. فكان لا يرى بأساً من إعلانها تحديثاً بنعم الله عليه لذا، نراه يقول: "أنا محمد النبي الأمي."

"أُوتيتُ فواتح الكَلِم وجوامعه وخواتمه."[1]

"إنما بُعثت فاتحًا وخاتمًا وأُعطيتُ جوامع الكلم وفواتحه."[2]

كان ببيانه الذي يشع نوراً وضياء يعلن أنه سيد خطباء الأولين والآخرين.

كان سيد الأنبياء ﷺ بأنفاسه التي تحيي النفوس بلبلاً يشدو في روضة الحق... كلما شدا عبَّر عما في قلبه فتنساب الألحان الإلهية الساحرة من فمه... كلماته الرقيقة الشبيهة بأكمام الورود النضرة وزهوره المتفتحة على أنداء الصباح لم تكن تشبه زهور الآخرين. كانت كل كلمة له على مائدة أقواله نضرة يانعة وجديدة وطرية طراوة قطرة الندى. ولم تتيسر نعمة تذوق بيانه الساحر الأخاذ وفهم معانيه إلا لمن سعد بحضور مجلسه من المحظوظين الأوائل.

لقد حد سيد الفصحاء من جوهر الكلام سيفًا صقيلاً قام -بمجرد رسمه حلزوناً فوق الرؤوس- بمطاردة كل خفافيش البيان الكاذب والمزخرف، وفرت كل الأكاذيب إلى أقصى بلاد العنقاء.

وأسال من أودية البيان ينابيع وعيوناً حَوَّلت صحارى الجاهلية إلى رياض زاهرة، وشلالات هادرة بحيث وجد كل أصحاب القلوب المنفتحة على الإيمان أنفسهم في بحار هذه العيون المتدفقة نحو محيطات الأبدية والأزلية.

كانت كلماته نابعة من وراء الغيب... ولولا كلماته المضيئة بنور الوحي لبقيت العوالم في فوضى واضطراب وعماء. لقد أزال بسيف بيانه الستار عن وجه الطبيعة وزيَّن كتاب الشريعة بنقوش أقواله. الكلام عنده كان بمثابة متاع الفارس، والسهم ذي الريش الذهبي في جعبته. ما زار مكانًا إلا وملأ بالجواهر حجر من يفهم الكلام حق الفهم، وشد قوسه وهاجم بفرسه مواضع الظلام. وعندما شاء الله أن يرسي -وللمرة الأخيرة- قواعد دولة بكلامه جاء بسيد البلغاء ليقوم بهذه الوظيفة وأعطاه ختمه وسكته.

كان كل فرسان الكلام منذ فجر التاريخ ممن تطلعوا إلى ماوراء أستار هذا العالم بمثابة أفراد كورس غنائي في تمجيد الله تعالى... أما هو ﷺ فكان بمثابة قائد هذا الأوركسترا... وبمثابة رئيس الذاكرين في الحلقة القدسية بالأولياء والأصفياء... جاء فدوّى صوته في أرجاء الدنيا وترددت أصداؤه في جنبات العالم فهزته هزًّا عنيفًا.

كانت كل ثمرة من الثمار المتزينة بكلماته والتي قدمها للإنسانية من المائدة السماوية مجنية ومهداة له من حديقة حبيبه وخالقه. ومن أكثر جوانب هذه الحديقة خصوصية وسرية وقدسية والتي لم يطلع عليها أحد من قبل، بل قُدِّمتْ له من مولاه كهدية خاصة، إذ لم ير هذه الثمار ولم يقربها ولم يلمسها أحد من قبل.

وعندما كان يجيش قلب هذا العندليب صاحب المكانة السامية ويغمره الوجد والهيام يبدأ بالشدو بأرقّ الألحان وبالغناء بأرق النغمات بأزهار تلك الحديقة الخاصة المقدسة... هنا كانت الألسن الأخرى تصمت... والأرواح تنصت... والقلوب تهيم... والنفوس تذهل أمام قطرات معاني كلماته البليغة الساحرة.

أجل، إن كلماته تشبه البحار التي تنثر اللآلئ على السواحل بأمواجها أو بالشلالات المنهمرة من الآعالي أو بالعيون الفوارة من الأعماق الآخذة بمجامع القلوب... فلا نستطيع قياس غنى أعماق هذه البحار ولا محتوياتها ولا ترجمة هذه الشلالات ولا بلوغ الذُّرَى التي تبلغها هذه العيون الفوارة أو الإحاطة بها.

لقد صرف المئات من الأدباء والمحققين أعمارهم في تدقيق جواهر كلامه والطواف حولها... وتوجه آلاف وآلاف من المفكرين إلى نبع الحياة هذا، وأفنى الكثير من الدهاة حياتهم في الغوص إلى أعماق معاني كلامه... ولكن معاني كلماته بقيت وراء أي نقطة تم الوصول إليها.

أجل، فكما لا تستطيع القطرة الواحدة تمثيل البحر بأكمله، وكما لا تستطيع الذرة الواحدة التعبير الكامل عن خصائص الشمس، لا يستطيع العلماء ولا الأولياء ولا الأصفياء الذين يمثلون جزءً من الحقيقة المحمدية مهما كانوا كاملي الصفات بالنسبة للناس الآخرين أن يمثلوه التمثيل الكامل، ولا أن يعكسوا صورته بأكملها.

إن رسول الله ﷺ رغم أميته وعدم دراسته في المدارس مرشد كامل، بسبب متانة بنيته المادية والمعنوية وصفاء أحاسيسه ورصانة تفكيره وقلبه الواسع المنفتح والمتوجه نحو المعالي؛ فاستطاع بذلك تسلم الرسالة الإلهية كما هي، وحافظ عليها كما هي، وأبلغها للناس كما هي... فقد كانت فطرته وخلقته ميسَّرة لتنفيذ هذه المهمة، إذ تمت المحافظة على صفاء روحه وصانه الله من أي تأثير سلبي للتربية أو المعرفة البشرية ثم زينه بالوحي وأرسله للناس... هذا هو معنى النبي الأمي والمرشد الكامل الذي لم ير

مدرسة و لم يتعلم من الناس.

لقد كانت طبيعته وسجيته وأحاسيسه الظاهرة والباطنة وعقله ومنطقه مهيئاً وصالحاً للقيام بوظيفة النبوة ومهامّها، حيث قام بنقل الوحي حتى أصغر تفاصيله ودقائقه دون تعريضه لأي تبديل أو تغيير، بل ينقل الوحي الإلهي للناس كما ينقل المنشورُ الضوءَ المارّ من خلاله لكي يكون ملائمًا لعقول البشر.

هذه الرسالة الإلهية النابعة من أطهر مكان والمتدفقة إلى أطهر قلب بُلّغت للناس بألطف لسان وأفصحه وأنـــزهه حسب قدرة العقل البشري واستيعابه. وكما أنها أمارة من أمارات النبوة وإشارة إليها فإنها في الوقت نفسه دليل من أدلتها، وحجة من الحجج الدامغة وزادُه أثناء قطعه لتلك المفاوز الموحشة والطرق الوعرة وبُراقُه[٣] فيها.

وعندما كان يقدم للناس رسائل ربه كان يصرح في الوقت نفسه بنبوته ويعلن رسالته؛ وكذلك عندما كان يستعمل جواهر خزائن الوحي وأسراره الإلهية الساحرة في حل معضلات ومشاكل محدِّثيه وأصحابه، كان يستعمل الوحي الإلهي نفسه كسيف ماسي في إلزام خصومه وإفحامهم وإسكاتهم.

كان القرآن بالنسبة إليه كل شيء... كالهواء والماء... سلاحاً ودرعاً... حصناً وقلعة... وراية ترفرف فوق هذه القلعة... كان يتنفس بالقرآن، ويعلو به كالسحاب إلى الأعالي... يسرع به لنجدة الملهوف المحتاج مثلما تسرع قطرات الرحمة لري عطش المخلوقات وظمئها... ينافح به الظلام ويلوذ به من شرور الأشرار... يصول به ويجول، ويكون نوراً ينتشر في الآفاق.

علماً بأن سيد البلغاء، وسلطان الفصحاء وممثل الحكمة إضافة إلى كنـــز العلم الإلهي الذي لا ينفد كان كثيرًا ما يوجه إليه العديد من الأسئلة، وكان هناك العديد من المسائل والمشاكل والمعضلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تنتظر الحل والأجوبة الشافية من لدن رسول الله ﷺ. فكان ﷺ يقوم بإيفاء حق وظيفته النبوية هذه لأن القلب المحمدي الصافي كان المرآة المجلوة لعكس العلم اللاهائي، ومركزه ومنـــزله ومهبطه وحديقته وبستانه. فكان يقوم بشرح القرآن الكريم فيقيد المطلق، أو يطلق المقيد، أو يخصص العام، أو يعمم الخاص، وذلك باستعمال أسلوبه الخاص وبيانه الفصيح علاوة إلى تبليغ رسالة القرآن. فهذه هي مهمة الرسول المبعوث إلى الناس كافة. وما كان بإمكان أي مصلح ومجدد ومرشد للإنسانية جمعاء ومبلِّغ للناس أجمعين إلا أن يكون هكذا.

في العهد الذي شُرِّف فيه النبي ﷺ بشرف النبوة كانت الفصاحة والبلاغة أروج شيء في سوق الجاهلية. فقد كانت هذه الأمة -التي حكمت فيما بعد العالم بذكائها ودرايتها- أمة أدبية. لذا، فقد سحرها ما سمعته من الرسول ﷺ من تلاوة للقرآن الكريم أو من حديث أو خطاب، واستمعت إليه مذهولة مفتونة به ومعجبة بما تسمعه منه. أما هو ﷺ فقد فرض نفسه عليهم في كل فرصة، و لم يجد أعداؤه ما يَصِمونه به أو ما ينتقدونه به. ولو فعلوا هذا أيْ لو قاموا بتقديم أقل اعتراض أو نقد لما تأخر خصومه الموجودون حاليّاً من تناول ذلك الأمر وتضخيمه وتكبيره وإيصال ذلك إلى كل شخص وإلى جميع أنحاء العالم من أجل إزالة محبته من النفوس. وأمثال هؤلاء لا يتورعون عن تلفيق أحقر الاتهامات وأرذل الافتراءات حوله. ولكنهم مع تفتيشهم هذا لا يجدون شيئًا ضده. وأمام بيان رسول الله ﷺ وفصاحته وقوة تعبيره لم يستطيعوا أن يقولوا له حتى ما قاله فرعون لسيدنا موسى عليه السلام.[٤]

إن صوت من قال: "أدَّبني ربي فأحسن تأديبي" يهدر من فوق ذروة سامقة بشكل لا يملك معه الأصدقاء والخصوم سوى الشعور بالاحترام والإعجاب والتوقير له ولبيانه المملوء فصاحة وبلاغة.

كان من بين أصحابه الكرام العديدُ من أصحاب البلاغة أمثال لبيد، والخنساء، وكعب بن مالك وحَسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، والكثير من الخطباء أمثال أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وابن عباس والعديد من الفقهاء وأصحاب الحكم... كل هؤلاء قبلوا به مرشدًا وأستاذًا وهادياً لهم في كل مسألة وفي كل موضوع.

أما الذين جاءوا من بعده من كبار حفاظ الحديث وشراحه ومن عباقرة مفسري القرآن ومدققيه، ومن أعلام أئمة الفقه والمجتهدين والمجددين الذين سبقوا عصورهم، وآلاف الأولياء العظام والأصفياء والأبرار والمقربين من الذين كان لهم قصب السبق في عالم الأرواح وعلماء الكلام والمنطق، والعديد من العلماء الآخرين في كل فن وعلم، فقد رأوا في أحاديثه وكلامه مرجعاً أميناً وفياضاً صافياً دفاقاً لا يجف ولا ينتهي ولا ينفد، فراجعوه ولجأوا إليه ليشبعوا ظمأهم منه ويطفئوا جوعهم من هذه المائدة الربانية.

أجل، لقد كانت سُنَّته من الأمس حتى اليوم منبع المجتهدين

الذي لا يضل وباب العلم الفسيح، والجناح القوي للسابحين في سماء المعرفة والنبع الصافي الرقراق لإلهامات الأولياء والأصفياء. فخلاصة علوم الشريعة، وكل طرق الصوفية وكل العلوم الكونية وأسرار القلب والوجدان نابعة من النبع الصافي لجواهر كلامه النوراني.

لقد بَيَّن بياناً واضحاً كثيراً من المواضيع اعتباراً من بدء الخليقة وخلق الإنسان وانتهاءً إلى يوم القيامة، يوم يساق المرء إما إلى الجنة أو إلى الجحيم... وتحدث عن القلوب المتفتحة للمعارف الربانية، وعن مشاهدتهم جمال الله في الآخرة... عن الإيمان والعقائد... عن أدق تفاصيل العبادات... تحدث في مواضيع عديدة، واستعمل في كل موضوع اللسان المناسب والبيان المناسب إلى درجة أننا إذا استثنينا القرآن فلن نجد بياناً مثل بيانه ولا فصاحة مثل فصاحته.

تكلم عن الله: ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى بما يناسب هذه المواضيع الحساسة من دقة وتوازن، وعن القيامة والحشر والنشر وعن يوم الحساب وعن الجنة والجحيم فأعطى الأمل الممزوج بالخشية والرهبة المنقلبة إلى سعادة، وعن الملائكة والروح والجن والشياطين وعن أسرار الغيب الأخرى فكأنك تنظر إليها من وراء زجاج بلوري مضبب؛ وتحدث عن الإيمان وعن العمل، وعن الإخلاص في العمل وعن قابلية البذرة للنمو وقابلية التربة للإنبات وعن الحياة التي يهديها المطر وعن جمال الربيع الزاهر والزاخر بالألوان والعطور؛ فكأنك ترى أمامك لوحة مرسومة بريشة فنان عظيم... لوحة تعلم عندما تتأملها كيف تسمو بالإيمان فطرة الإنسان النظيف وكيف تتوسع وتنمو هذه الفطرة بالإسلام، وكيف تنقلب بالإخلاص إلى شجرة طوبى تظلل ما حولها.

تَعْلَم من بيانه أن الصلاة صديق مرافق للإنسان في جلوسه وقيامه، تطرد عنه وحدته وتنير دربه... وأن الوضوء شيء يجري في عروق الإنسان مجرى الروح والدم... نهر أمام بيته يغسله من كل درن. أما الأذان والإقامة فشجرة باسقة... وهدير رعد قاصف يفزع الشياطين ويلقي في قلوبهم الرعب... أما للمؤمنين فروح وريحان يلف أرواح الذاهبين إلى الصلاة.

الزكاة والصدقة كقنطرة توصل بين الجماعات المتشتتة والمتقطعة الروابط، وكمادة تلتحم بها القطع المتكسرة فتصبح قطعة واحدة.

الصيام جنة يحفظ صاحبه فيكون باباً سريًّا في أسوار الجنة يساعده في الولوج إلى الجنة. ويكون لصاحبه ساقيًا يقدم له شراب الكوثر.

الحج مثل خَيّاط يرتق الرتوق... ومثل غاسل يزيل البقع والأوساخ... ومثل مجلس كبير للشورى يجمع الناس على صعيد واحد.

الجهاد مثل فدائي منتصب القامة سد الطرق المؤدية إلى جهنم ومثل موظف استقبال يفتح لك أبواب الجنة ويقول لك مرحِّبًا: تفضل بالدخول. ومثل أب رحيم يقيِّد أيدي المعاندين ويسوقهم إلى أبواب الفردوس. أما الذِكْر والدعاء عنده فمثل هاتف لاسلكي يقيم رابطة وعلاقة وحوارًا بين المخلوق وخالقه. أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمثل موظف ينظم السير... مثل بواب أو حارس واقف على مفترق الطرق وعلى الأبواب ينظم المرور في الطرق أو الدخول من الأبواب.

أما صلة الرحم فمثل أم فتحت حضنها تنتظر، وتتحاسب مع الإنسانية وتتحدث معها وتقف منها موقف المدعي العام، وتبذل لها الوعود، وتمسك بتلابيبها لتحذرها من الانحراف... أي تتشكل هنا لوحة من الموزائيك الحي الرائع تسحر القلوب.

أجل، إن قيامه بشرح كل هذه الأمور وتصويرها تصويرًا فنيًّا موضوع يحتاج إيضاحه إلى كتابة مجلدات في كيفية قيامه بذلك، والمواد الأولية التي استعملها في تصويره وفي نقشه وفي زينته، وطراز حركته وأدائه وقوة تصويره وقدرته البلاغية والموسيقية، كل ذلك دون تصنع ولا تكلف.

إذن، فلندع الشرح الدقيق والعميق لمثل هذه المواضيع المختلفة إلى أربابها والمتخصصين فيها، ولنتناول هنا بعض أحاديثه المباركة التي يعلمها الجميع لكي نشير إلى معانيها العميقة وقوة بيانها ورصانتها. ■

المصدر: النور الخالد، ص:١٨٠-١٨٦

الهوامش

(١) المسند للإمام أحمد، ٢/٢٥٠، ٤١٢؛ كنز العمال للهندي، ٤١٢/١١.

(٢) البخاري، الجهاد ١٢٢؛ مسلم، المساجد ٦؛ وانظر: كنز العمال للهندي، ٤٢٥/١١.

(٣) البراق: المركب الذي ركبه الرسول ﷺ في أثناء إسرائه ومعراجه. (المترجم)

(٤) يشير الى خطاب فرعون لموسى عليه السلام: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف:٥٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

عن علي رضي الله تعالى عنه
كان اذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال
لم يكن بالطويل الممغط ولا بالقصير المتردد كان ربعة
من القوم ولم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط كان
جعدا رجلا ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم وكان في الوجه
تدوير أبيض مشرب ادعج العينين اهدب الاشفار
جليل المشاش والكتد اجرد ذو مسربة شثن
الكفين والقدمين اذا مشى يتقلع كأنما يمشي في
صبب واذا التفت التفت معا

وما ارسلناك الا رحمة للعالمين

بين كتفيه خاتم النبوة وهو خاتم النبيين اجود الناس صدرا
واصدقهم لهجة والينهم عريكة واكرمهم عشرة من رآه بديهة
هابه ومن خالطه معرفة احبه يقول ناعته لم ار قبله ولا بعده مثله
صلى الله عليه وسلم كتبه الفقير الى رحمة ربه القدير حسن
ربيع الاول ١٤٢٧

في ظلال القبة الخضراء

محمد رسول الله ﷺ هو المعنى الأسمى للخلق، وخلاصة الوجود. فهو الأول حسب شجرة الخلق وهو الأخير بمعنى من المعاني. فكأن الوجود نُظم كأبيات شعر باسمه، وكأن وجوده وجسده كان الكلمة الأخيرة من هذا الشعر. كان تشريفه للدنيا رمزا لولادة الإنسانية من جديد. أما نبوته فكانت وسيلة لظهور المعاني والقيم الحقيقية للأشياء والحوادث، وهجرته طريق خلاص الإنسانية، ورسالته جسرا لسعادة الدنيا والآخرة. وصلت بفضله القلوب المؤمنة إلى مشاهدة الوجود كمعرض، والقيام بتقييمه على هذا الأساس، وعلى تفسيره بعد قراءته ككتاب، والعثور في إقليمه المضيء على الطرق المؤدية إلى الحق تعالى. والذين عثروا على الحقيقة بواسطته وبه، يتنفسون على الدوام معاني الأبدية والخلود. والذين وُهبوا المعرفة العميقة بسيرته حصلوا على عصارة كل العلوم ولبّها.

وعلى الرغم من مرور كل هذه السنين والأعوام فهو لا يزال يلتمع في أفق حياتنا كشهاب وكنجم جديد، بل كشمس لها القدرة على إضاءة الوجود كله، بل هو في الحقيقة منبع ضياء قوي يستطيع تنويج الشمس. حدود وأفق وظيفته منبع حكمة تهب شعور العبودية للقلوب، أما روحه المشبع بالحب فيربط جوانب الوجود بعضها ببعض.

كلما خطا الإنسان إلى جو يحيط بما يذكّر به أحس بأن دمه يجري بالحب. وما أن يخطو إلى جوه وإقليمه خطوة واحدة حتى يجد نفسه في منتصف الطرق الموصلة إلى الله. أما زيارة قربته فهي بمثابة مرسى وميناء ونقطة انطلاق إلى عصر النور. والذين يؤمنون بنقطة الانطلاق هذه يصلون إلى شرف اللقاء به، وتمتلئ أرواحهم بالشوق إليه. ومهما كان عدد الزيارات التي يقوم بها الشخص لمرقده الأخضر الطاهر المتناسق الذي ينبعث منه الحب والجمال والرومانتيكية والشعر -وكأنه في مغتسل موسيقي- يشعر في كل زيارة بعمق وغنى وخصوصية ذلك الجو والعالم الذي يحيط به، ويستسلم قلبه لعالم الوصال، ويشعر بتغير في نبض الحياة من حوله، ويجد نفسه في خضم متلاطم من عواطف متداخلة من الفرح والحزن.

أجل... في هذا المكان الذي تجلله المهابة، والذي يحيط به المعبد المبارك، والقبة الخضراء التي تبدو وكأنها تريد الانطلاق نحو سدرة المنتهى، يغرق الإنسان على الدوام في بحر من الأفكار حول أحوال العالم الإسلامي، وتحيط به مشاعر عميقة، وتملأ قلبه عواطف متأججة وملتهبة. أحياناً يحس الإنسان أن ضبابا يلف هذا المكان المبارك، وأن حزنا ينتشر في أرجاء هذا المعبد، وتبدو القبة الخضراء آنذاك وكأنها جواد أصيل وقف على قائمتيه الخلفيتين تتحدث مع أرواحنا، أو كأنها فتحت يد الضراعة نحو السماء خلف الثاوي المبارك قربها... تمد يد الضراعة نحو السماء وتتوسل، وتذكّرنا بأيام الهجران والحسرة. يحدث أحياناً كأن نورا يغمر كل مكان هناك، فيتحول المسجد إلى هالة مثل هالة القمر، وتبدو القبة وكأنها تقدم تحيات الفرح لأهل السماء. وأحياناً يبدو منظرها المتوجه إلى السماء في حالة ترقب وانتظار عميق ومؤثر إلى درجة أنك تتخيل هذه القبة الخضراء وكأنها ترجمان لآلامك وأحزانك، أو تتوهمها وكأنها تغني أشعار الغزل الفرحة. وفي غمرة صمتها العميق، وانفعالها الصامت تسمع ما لا يُسمع وتشعر ما لا يُشعر، وتحدس ما لا يُحدس، فتحس وكأنك تجاوزت أبعاد المكان الذي أنت موجود فيه، وأبحرت في بُعد وفي عمق آخر.

تبدو القبة الخضراء والمعبد المبارك الذي يحيط بها -مع الجبال والتلال الصغيرة والكبيرة حواليها- في تناغم تامّ مع السهول الواسعة والصحراء الممتدة والواحات التي تهب فيها نسائم كأنها قادمة من الأبدية، حتى لتبدو وكأنها قد صُممت في السماء ثم رسمت على الأرض. أجل فالقبة الخضراء أعمق حتى من أعمق زرقة في السماء، وقطعة محفوفة بالأسرار. فكأن أسطر وصفحة كتاب الطبيعة التي تكون هذه البقعة المباركة قد اختيرت بدقة، ووضعت بعناية في محلها وفي موقعها، حتى كأنها نقطة التقاء السماء مع الأرض، ونقطة التقاء العديد من الأشياء المادية والمعنوية. أما القلوب المفتوحة لصاحب هذا المكان -جعلت أنفسنا فداء له- فما أن يلجوا ويتنسموا جوه حتى يحسبوا أنفسهم، وكأنهم بدأوا يخالطون أهل السماء. وما أن يُقبل الإنسان على المواجهة التي تعد البستان الخاص وحديقة العشاق حتى تثور عنده المشاعر، ويحس بأن قلبه على وشك التوقف، ويتصاعد الانفعال في قسمات الوجوه الطاهرة. والحقيقة أن عدد الذين توفوا هناك بالسكتة القلبية ليس قليلا.

كانت المواجهة على الدوام بالنسبة للعشاق مرفأ ونقطة انطلاق نحو الأعالي. وكل من وصل إلى هناك من أصحاب القلوب العاشقة يبدو وكأنه دخل إلى دهليز من زمان سحري، وفتح جناحيه إلى السماوات العالية أو أبحر في بحار واسعة... يدخل وكأنه يستمع إلى شعر حول جمال تلك البقعة المباركة وإلى براءتها التي هي فوق كل براءة، ويعبّ من هذا الجمال كأنه يعبّ من ماء الكوثر. ويشعر في كل لحظة تمضي بلون جديد من السعادة.

الزمان عند المواجهة مضيء وساحر ومفتوح للخيال إلى درجة أن كل صاحب فؤاد ذكي وصل إلى هناك يتخيل وكأنه يرى الوجه المشرق الطاهر للنبي ﷺ، ويحس بجزء من انفعالات صدره المتفتح للوحي، ويتخيل أنه يسمع صوت أبواب السماء وهي تنفتح، وأصوات رفرفة أجنحة جبريل عليه السلام، وأصوات تلاوة مهيبة للقرآن وهي تتردد، فيحس وكأنه قد تبلل من رأسه إلى أخمص قدميه بمطر الرحمة من ذلك العهد السعيد، فلا يملك نفسه من التناغم مع هذا الجو، فتذرف عيونه دموعا ساخنة. وعندما يحس أن أحاسيس الروضة الطاهرة قد طوقته وأحاطت به بعمق، يتمنى أن يذوب وأن يسيل إلى تلك الروضة الطاهرة.

والحقيقة أن كل ما يراه الإنسان هناك ويحس به يتصف بأنه عميق، ويخاطب سريرة الإنسان وقلبه. المكان هناك وكل شيء لا بد أن يهمس للإنسان شيئا. وبجانب بكاء العاشقين وأنينهم ترى الأعمدة المحظوظة الصامتة هناك، والبسمة الحزينة المشاهدة في حال "المواجهة" التي يرسل من خلالها الضريح المبارك -المطاف القدسي للأرواح- البسمات إلى عيون خيالاتنا مثل صاحب بيت مضياف ووفي... هذه البسمات دافئة ومؤثرة إلى درجة أن صاحب كل فؤاد ذكي يحس تجاه هذه المعاملة الخاصة والسرية وكأنه وصل إلى الخلود.

والذين يحسون في قلوبهم، وينظرون إلى هذا الدرب الملائكي بهذه العين، ويفهمونه بهذا المعنى، يخيل إليهم أنه لا يوجد هناك أي شيء حي أو أي جماد، بل صمت تلفه ألوان المهابة، وكأن هناك انتظارا عاما ضمن جو انفعالات الزيارة. فما أن يخطو أي زائر الخطوة الأولى إلى ذلك المقام حتى يجد نفسه تحت تأثير ذلك الجو ويبدأ بالإنصات إليه. أما الروضة المطهرة فتبدو وكأنها تقدم أسلوبها وصمتها أنموذجا لهم، وتفتح في عالم عواطفهم خمسين نوعا من المنافذ لأحاسيس وعواطف بِكر لم

يعرفوها، و لم يتذوقوها من قبل.

يلقى الإنسان في حضن الروضة المطهرة على الدوام سحرا يبرق أمام العيون ويلف القلوب، فيحس بنسائم عالم جديد في أحاسيسه وفي أفكاره، فيلج من أبواب خيالية في أعماق قلبه إلى عوالم غامضة تلفها الأسرار، فكأنه يسمع من منبر الأرض تلك الخطبة الخالدة -التي شكّل كلامُ الحق تعالى بيانه- من فم سيد الفصحاء، وتفعم السعادة قلبه لكونه من أمته، فيهوي إلى الأرض ساجدا سجدة الشكر.

لا شك بأن مثل هذا الحدس والاستماع بأذن القلب، ومثل هذه الانفعالات والعواطف والأذواق تظهر وتأتي نتيجة تفاعل وتجمع وتراكم العقيدة مع قناعة وتوجه كامل ومع حدس عميق. فما أكثر ما تستطيع الروضة المطهرة والمسجد النبوي وموطن النبي ﷺ وموطن العاشقين من نفث للمعاني في روع هؤلاء الذين ملكوا مثل هذه العقيدة والقناعة والتوجه وهذا الحدس.

أجل فللروضة المطهرة بالنسبة لزوارها الذين أكملوا وأتموا تركيزهم القلبي والروحي موضع هام في عالم أحاسيسهم وانفعالاتهم، ولها موقع خاص متميز بكل تفصيل من تفاصيله... بِصَمْتها المهيب، ومنظرها الوقور وعمقها اللدني... كأنها تنشد شعر الوجود وتومئ إلى العالم الآخر... كأن كورس السماء ينشد هناك أعذب ألحان الموسيقى، ويضع في قلوب المتوجهين إليها جمرة العشق، فيعيش كل واحد منهم فترة لذة العشق والوصال، ثم تغيب مرة في ذلك الصمت العميق، وتتركك في وحدة حزينة وسط خيمة الوصال، وكأنها لم تفتح لك قبل قليل أستار الأسرار... تتركك وحدك وترجع إلى حالها البكر السابق... تتركك ولكنها لا تهمل الدعوة الثانية لقلبك. ■

(*) الترجمة عن التركية: اورخان محمد علي.

من أبعاد فطنته ﷺ

الرحمة النبوية

إن من أبعاد فطنته ﷺ رحمته وشفقته تجاه كل المخلوقين. أجل، لقد كان سيدنا محمد ﷺ هو الممثل الوحيد لتجلي صفة الرحمة والرحمانية لله تعالى في الأرض. واستعمل هذه الصفة كإكسير شاف لفتح القلوب والتربع على عروشها. ذلك لأن صفة الشفقة والرأفة واللين في الإنسان هي العامل الثاني في جذب الناس وفتح قلوبها بعد صفة الإخلاص والتجرد الحقيقي. لقد كانت رقة وجمال العالم الداخلي للرسول ﷺ وقابليته غير الاعتيادية ورحمته وشفقته -اللتان كانتا بُعدا آخر من أبعاد فطنته- من عوامل نجاحه التي استعملها واستغلها، ومن دلائل نبوته كذلك.

لقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين. أجل، لقد كان مرآة مجلوة تعكس رحمة الله تعالى... كأنه كان نبعًا وسط الصحارى أو حوض كوثر... تقاطر عليه الجميع وفي يد كل منهم وعاؤه... يشرب حتى يطفئ ظمأه ويروي غلته ويملأ وعاءه... أجل، إنه بسرّ بُعد الرحمة المتجلية فيه مثل حوض كوثر للجميع، من أراد استطاع الاستفادة منه.

غير أنه بهذه الفطنة الرائعة جعل الرحمة الموجودة في فطرته شباك رحمة لصيد القلوب، فمن وجد نفسه في ذلك الجو الساحر وجد نفسه في طريق الجنة وفي قمة الوجد... هكذا كانت "الرحمة" في يد رسول الله ﷺ مفتاحًا سحريًّا... فبهذا المفتاح فتح مغاليق أقفال صدئة لم يكن أحد يتوقع فتحها بأي مفتاح، وأشعل شعلة الإيمان في القلوب... أجل، لقد سلّم هذا المفتاح الذهبي إلى محمد المصطفى ﷺ لأنه كان أليق الناس به، والله تعالى دائما يسلم الأمانة لمن هو أهل لها؛ لذا، سلم مفتاح القلوب التي أعطاها أمانة للناس إلى من هو أكثر أهلية له من بين كل الناس وكل البشر... إلى محمد ﷺ. أجل، لقد أرسله الله رحمة للعالمين، فقام ﷺ بتقييم هذه الرحمة بشكل متوازن جدا، لأن التوازن شيء مهم في موضوع الرحمة.

الإفراط والتفريط في الرحمة

هناك إفراط وتفريط في مسألة الرحمة كما في المسائل الأخرى. ويمكن مشاهدة أفضل مثل على سوء استعمال الرحمة في فكر وتصرفات الماسونيين، فهم مع كونهم يتحدثون بمبالغة عن الحب وعن الإنسانية نراهم لا يستطيعون إقامة أي علاقة حميمة مع أي شخص متدين، بل لو كان في مقدروهم أن يقتلوا كل شخص متدين ومسلم لفعلوا. فالحب الذي يتحدثون عنه مقتصر عليهم وعلى من يفكر مثلهم، وهذا الحب في الحقيقة ليس الحب الخالص الذي نعرفه نحن، بل هو حب قائم على المنافع وعلى المصالح بينما كانت رحمة سيد المرسلين رحمة متوازنة شاملة لم تشمل الناس فقط بل شملت الوجود بأجمعه.

يستطيع المؤمنون الاستفادة من الرحمة التي كان يمثلها النبي ﷺ، ذلك لأنه ﴿...بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨). ويستطيع الكافرون والمنافقون أيضا -إلى جانب المؤمنين- الاستفادة من هذه الرحمة كذلك. حتى أن لجبريل حصة من هذه الرحمة.[1] وانظروا وتأملوا مدى شمولية وسعة هذه الرحمة بحيث أن الشيطان نفسه بعدما شاهد هذه الرحمة انبعث فيه بعض الأمل فيها.[2] الرحمة التي يمثلها غير مقتصرة على أناس معينين ولا على جماعات معينة ولم يقم أبدًا باستغلال هذه الرحمة كما فعل البعض. ■

المصدر: النور الخالد، لفتح الله كولن، ص:٢٤٦-٢٤٨.

الهوامش

(١) الشفاء للقاضي عياض، ١/١٧.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي، ١٠/٢١٦؛ كنز العمال للهندي، ٤/٢٤٤.

كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر بن ساوة والي الأحساء / متحف طوب قابي - إسطنبول

حراء
مجلة علمية محكمة فصلية
www.hiramagazine.com

مهمة التبليغ عند رسولنا الحبيب ﷺ

أ- أسس مهمة في دعوته ﷺ

إن هناك أسسا مهمة في الدعوة والتبليغ، وقد ذكرنا بعضا منها، والآن نسترجع ذكرها باختصار لنضيف إليها أخرى.

الأول: الفطنة في الدعوة والتبليغ، وتستطيع أن تسمي هذه الفطنة بـــ"منطق النبوة".

الثاني: التمثيل الجيد للدعوة إذ يجب أن يعيش صاحب الدعوة دعوته في جميع مظاهر حياته. وقبل أن يدعو الآخرين إلى دعوته عليه أن يطبقها على نفسه ويعيش دعوته أولا.

الثالث: أن تكون النتيجة المبتغاة من الدعوة رضا الله تعالى وحده، فلا يجب أن تكون لدعوته غاية غير هذا ولو الجنة. وهذا يعني التضحية بجميع الفيوضات والمنافع المادية منها والمعنوية.

١) الفطنة الداخلية

هناك جانب الفطنة في دعوة رسول الله ﷺ. والفطنة هنا ليس مجرد منطق بارد. بل منطق يمتد من الظاهر إلى الباطن ومن الدنيا إلى الآخرة. فكما أن للإنسان جانبًا منطقيًّا، فله كذلك جانب عاطفي. والذين يخاطبونه من جانبه العاطفي قد يفشلون عند وجود ثغرة في جانبه المنطقي. بينما كان الرسول ﷺ يخاطب الحواس والمنطق والحدس في آن واحد. فلا يهمل الأشياء المادية المرئية عند تناوله للإنسان، بل يجعلها ممرًا للنفوذ إلى روحه. وهو يستعمل العقل ويدعو إلى استعماله ويهتم باستعمال المنطق والمحاكمات العقلية ويخاطب الضمائر عن طريقها. فكل من سمع صوته في وجدانه وصل إلى الحقيقة أسرع ممن يخاطب الوجدان وحده. فالفلاسفة من أمثال "باسكال" و"برغسون" وغيرهم من الذين أرادوا الوصول إلى الله عن طريق الحدس (Intuition) مكانهم وراء التلاميذ الذين رباهم رسول الله ﷺ بمراحل بعيدة برغم أن المفروض أن يكون هذا الميدان ميدانهم. أما في ساحة الفضيلة والخُلق العام فلا يمكن أن نضعهم حتى بجانب أقل مؤمن.

وكما لا يمكن الوصول إلى الرسول محمد ﷺ في أي ساحة وفي أي ميدان، فإننا نرى هذا الأمر ساريًا في موضوع الفطنة أيضاً. فقد غلب خصومه بثاقب بصره، وجعلهم يستسلمون له. فمثلاً نراه يرفع أصبعه مشيرًا إلى الأصنام وقائلاً: ماذا تأملون من هذه الأحجار والأخشاب والتراب..؟ وبعد أن يخاطب عقل محدِّثه يأخذ بيده ليقربه إلى القلب أيضًا بطريقة خارقة غير اعتيادية وأحياناً بمعجزة، ثم يجعله يتقدم خطوة أخرى وينصبغ باطمئنان الإيمان ويذوق حلاوته حتى يصبح شخصًا آخر هَمُّه الحياة الأخرى.

لنأخذ مثلاً السيرة الروحية لعمر بن الخطاب ﷺ فقد قال له ﷺ إنه لا يعلم كيف أن شخصًا عاقلاً مثله يبقى بعيدًا عن الهداية، ولا يعلم ماذا ينتظر من الأحجار والأوثان.

فهو أولاً يمدح عمر بهذه الأقوال، ثم إنه يقول كلامًا يحترم المنطق؛ وبذلك أخذ عمر في راحة يده، ثم نفذ إلى قلب عمر ﷺ بأسلوبه الهادئ الذي يبعث الأمن والطمأنينة والثقة، وفي المرحلة الثالثة استطاع بعبوديته العميقة أن يجعل عمر الذي كان جبارًا في الجاهلية يجلس بين يديه جلسة تلميذ مؤدب أمام أستاذه الكبير.

نقدم مثالاً ملموسًا قبل الانتقال إلى الأسس الأخرى:

جاء شاب إلى رسول الله ﷺ. والصحابة لا يذكرون اسم هذا الشاب، ولكن إن قمنا بجمع الروايات وتوحيدها نعلم أنه جُليبيب ﷺ وقال له: ائْذَنْ لي يا رسول الله بالزنا. لننقل الرواية كاملة: عن أبي أمامة قال: إن فتى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائْذَنْ لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: "ادنه" فدنا منه قريبًا قال فجلس:

قال: "أتحبه لأمك؟" قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: "ولا الناس يحبونه لأمهاتهم" قال: "أفتحبه لابنتك؟"

قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك.

قال: "ولا الناس يحبونه لبناتهم." قال: "أفتحبه لأختك؟"

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: "ولا الناس يحبونه لأخواتهم" قال: "أفتحبه لعمتك؟"

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: "ولا الناس يحبونه لعماتهم" قال: "أفتحبه لخالتك؟"

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: "ولا الناس يحبونه لخالاتهم."

قال: فوضع يده عليه وقال: "اللهم اغفرْ ذنبَه وطَهِّرْ قلبَه وحَصِّنْ

فَرْجَه" فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

لقد استطاع رسول الله ﷺ بهذا الحوار المنطقي مع الشاب أن يجعله بين راحتي يديه يوجههه الوجهة التي يريدها. ثم وضع يده على صدره داعيًا "اللهم اغفرْ ذنبَه وطَهِّرْ قلبَه وحَصِّنْ فَرْجَه." فأصبح جُليبيب بعد هذا الدعاء مثال العفة. و لم يرض أحد أن يزوج جليبيبا ابنته، لأن حياته الماضية كانت معروفة لديهم. وهنا تدخل رسول الله ﷺ وزوج جُليبيبًا. ثم استشهد ﷺ في أول معركة اشترك فيها بعد زواجه. وعندما انتهت المعركة سأل رسول الله ﷺ.

"هل تفقدون من أحد؟" قالوا: نعم، فلانًا وفلانًا وفلانًا. ثم قال "هل تفقدون من أحد؟" قالوا: نعم، فلانًا وفلانًا. ثم قال: "هل تفقدون من أحد؟" قالوا: لا. قال "ولكني أفقد جُليبيبًا. فاطلبوه" فطلب في القتلى. فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتى النبيُّ ﷺ فوقف عليه فقال: "قتل سبعة، ثم قتلوه. هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه."

نعم! لقد استطاع الرسول ﷺ بفطنته أن يخلص شابا على حافة الزنا من الآثام، ثم رفعه إلى مثل هذه المرتبة السامية في أقصر وقت ممكن. إن هذا لأمر تحتار له العقول!

هب لو أن علماء التربية وعلماء النفس جميعا اجتمعوا وذهبوا إلى شبه جزيرة العرب هل يستطيعون تحقيق التربية والخلق الرفيع الذي حققه رسول الله ﷺ في مثل هذا الزمن القصير..؟ كلا! لن يستطيعوا ذلك. إنهم لن يفشلوا فقط في تحقيق تلك التربية العالية والخلق الرفيع، بل لن يستطيعوا تحقيق مبدإ واحد أو مبدأين فقط من منظومة هذه التربية... وهذا هو ما يشير إليه الواقع العملي.

ولقد عاش رسول الله ﷺ في عهد فشت فيه الأخلاق الذميمة من كل نوع حتى أصبحت طبيعة في النفوس، و لم يكتف رسول الله ﷺ باقتلاع هذه الأخلاق السيئة من النفوس بل زينها بأحلى الأخلاق وأجمل الفضائل، فلم تشاهد البشرية مثل هذه الأخلاق قط ولن تشاهد بعدهم أبدًا. والتاريخ الإسلامي شاهد صدق على هذا بما يحويه من آلاف الأمثلة. ولعل فشل الجهود المبذولة الآن لمكافحة بعض العادات السيئة يعد شاهدا آخر على ذلك. فعلى سبيل المثال تقوم الدول حاليًا بتسخير كل أجهزتها لمكافحة عادة التدخين، ومن ثم نرى الوزارت تشمر عن سواعد الجد، ويقوم المئات من العلماء بعقد الندوات لهذا الغرض وتخرج المطابع سيلاً من الكتب في مضار التدخين وتعلق الدعايات والإعلانات والشعارات... الخ. ولكن ماذا كانت النتيجة..؟ لا شيء.

ولكن لنتأمل الجماعة التي قام رسول الله ﷺ بتربيتها وكيف كانت أقواله تجد طريقها السريع في التطبيق العملي. وإليكم مثالاً واحدًا.

يقول أنس ﷺ: فإني لَقائم أسقي أبا طلحة وفلانًا وفلانًا إذ جاء رجل فقال: وهل بَلَغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال حُرمت الخمر. قالوا: أَهرِقْ هذه القِلال يا أنس. قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل.

نعم! لقد فعل كل هذا، والذين لا يرغبون أن يروا هذا نقول لهم ونحن نشير إلى شبه الجزيرة العربية: "إذا أردتم أن تفعلوا شيئا فاعملوا واحدًا من المليون مما عمله رسول الله ﷺ هناك..." ولن يستطيعوا ذلك أبدًا.

٢) تطبيق الدعوة على النفس أولاً

أحد الأساليب الديناميكية التي استعملها النبي ﷺ في دعوته، هو جعل طراز حياته مطابقًا تمامًا للمقام الذي يمثله. وتمثيله الحق لما كان يقوله ويدعو إليه كان صادقًا إلى درجة أن من يشاهده ويراه كان يؤمن بالله تعالى من غير حاجة إلى دليل آخر، حتى أن رؤيته مرة واحدة كانت كافية للإيمان بأنه رسول من عند الله.

يقول عبد الله بن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبئك بالخبر

إن الذين آمنوا به ووهبوا قلوبهم له والذين خاطبوه بـــ"يا رسول الله" كانوا هم الذين حكموا العالم وأداروه من بعده. فلم يكن نجاحه محصوراً في إيمان نفر قليل به. فمن بين هؤلاء الذين آمنوا به نجد أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا ﷺ أجمعين، إذ كان كل واحد منهم شخصية كبيرة تستطيع إدارة العالم بأجمعه؛ فما كان أي من هؤلاء من ذلك الطراز الذي يمكن أن يسلم قياده بسهولة لكل من يظهر أمامه. فلو كان أمامهم أحد سوى رسول الله ﷺ ما كان أي منهم ليؤمن به أو يسلس قياده له. إن شخصا في مستوى علي بن أبي طالب ﷺ الذي يقول: "لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً." والذي وصل في إيمانه إلى مستوى "حق اليقين"، أقول إن إيمان مثل هذا الشخص بالنبي ﷺ يعد دليلاً قائمًا بحد ذاته.

لقد كانت كل أحواله مؤثرة وساحرة بلغت أن العالم

القدح الشريف للرسول ﷺ / متحف طوب قابي - إسطنبول

اليهودي عبد الله بن سلام ما إن رآه للمرة الأولى حتى قال: "فلما تبيَّنْتُ وجهَه عرفتُ أنّ وجهه ليس بوجه كذاب."

أجل، لقد كانت رؤيته كافية للإيمان به. والذين أفنوا حياتهم كلها من أجل إيصال صوتهم وآرائهم للآخرين يعلمون مدى صعوبة هذا الأمر أكثر من غيرهم، أي الإيمان بهم من أول لقاء. لأن معظم هؤلاء يقضون حياتهم كلها في جهد متواصل فلا ينجحون إلا في جذب أشخاص بعدد أصابع اليدين. بينما انظروا إلى رسول الله ﷺ، فهل ترون مثيلاً له أو شخصًا آخر يتربع في قلوب ما يقارب مليار شخص؟ وهل هناك شخص آخر غيره يذكر اسمه خمس مرات في اليوم من فوق المآذن في كل أنحاء العالم..؟ إذن، فالإنسانية تحبه وتعلن هذا الحب كل يوم خمس مرات، هذا على الرغم من كل النظم والأشخاص العاملين ضده.

أجل، فعلى الرغم من كل شيء فما يزال الرسول محمد ﷺ متربعًا على عرش القلوب؛ لأنه طبق على نفسه أولاً ما دعا الناس إليه، وعاش مثالاً حيًّا للمبادئ التي دعا إليها، لذا كانت كلماته تنفذ إلى أعماق الجماهير وتجد طريقها للتطبيق العملي.

لقد كان يمثل في نفسه أجمل أنموذج للعبودية لله عندما كان يدعو الناس إلى هذه العبودية. تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتصف مبيت رسول الله ﷺ عندها فتقول ثم قال: "ذريني أتعبَّد لربي." قالت فقلت: والله إني لأحب قربك وإني أحب أن تَعَبَّدَ لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض. ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذَنبَكَ ما تقدم منه وما تأخر؟ فقال: "ويحك يا بلال! وما يمنعني أن أبكي وقد أُنزِلَ عليَّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠)." ثم قال: "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها."

كان يصلي حتى تتورم قدماه. وعندما ذكر له يومًا أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: "أفلا أكون عبداً شكوراً؟." لقد فتحت أمامه أبواب الشكر فكان جهده من أجل ذلك.

تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحسستُ ثم رجعت. فإذا هو راكع أو ساجد يقول "سبحانك وبحمدك لاَ إله إلا أنت" فقلت: بأبي أنت وأمي. إني لفي شأن وإنك لفي شأن آخر.

وفي رواية أخرى قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعتْ يدي على بطن قدميه وهو في المسجد

الرباعية الشريفة للرسول ﷺ
متحف طوب قابي - إسطنبول

وهما منصوبتان وهو يقول: "اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك."

لو شاء لعاش عيشة رخية وهينة مثل عيشة الملوك. ولقد اقترحوا عليه في مكة مثل هذا العيش في مقابل التخلي عن دعوته، غير أنه فَضّل حياة الضنك والشدة على حياة الرفاهية والغِنى، وذلك في سبيل دعوته. فَضَّلَ حياة العبد الرسول الذي يجوع فيتضرع أو يشبع فيشكر على حياة المَلِك الرسول. لقد كان أسلوب حياته البسيطة الخشنة هو الذي ربط الناس به.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يعيش أيضاً حياة بسيطة جدًّا، غير أن ما شاهده من طراز حياة الرسول ﷺ جعل الدموع تملأ عينيه. يقول عمر ﷺ:

وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم حَشْوُها لِيفٌ وأنّ عند رجليه قَرَظًا مصبوبًا، وعند رأسه أَهَبٌ معلقة فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت. فقال: "ما يبكيك؟" فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسولُ الله. فقال: "أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟"

صحيح أن زمام الدنيا يجب أن يكون بأيدينا، وقد كان رسول الله ﷺ يدرك هذا أكثر مـــن غيره، ولكنه كان يعيش حياته الشخصية بشـــكل بســـيط جدًّا.. وفي الحقيقة إنه ما كان يعيش لنفسه بل لغيره. ألم يكن تمثيله لدعوته بهذه الكيفية مـــن أكبر عوامل جذب الأرواح إليـــه؟

إن في حياة الرسول ﷺ وسلوكه وتصرفاته وطراز حياته دروسًا قيمة للدعاة. أجل، فإن الشرط الأساسي للنفوذ إلى القلوب هو تطبيق الدعوة ومبادئها على النفس أولاً وقبل كل شيء كما فعل ذلك رسول الله ﷺ.

إذا أردت أن تشرح لأحدهم معنى مخافة الله والبكاء من خشيته، فعليك أولاً أن تقوم في الليل وتبلل سجادتك بالدموع. في نهار تلك الليلة وعندما تدعو الناس ستتعجب من مدى تأثير كلامك عليهم، وإلا ستتلقى صفعة من الآية الكريمة ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ (الصفّ:٢) فتلاقيك الخيبة في التأثير على الناس.

٣) عدم انتظار الأجر

كان عدم انتظار أي أجر دنيوي أو أخروي مقابل القيام بمهمة الدعوة والتبليغ كما فعل ذلك رسول الله ﷺ دليلاً آخر

على نبوته. لأن هذا من أخلاق النبوة. والدعاة الحقيقيون الذين جاءوا وسيجيئون من بعده هم الذين يتخلقون بهذا الخلق. والقرآن الكريم يأمرنا باتباع أمثال هؤلاء الذين لا يسألون أجرًا من أحد.

لقد أنفق الرسول ﷺ ثروة السيدة خديجة رضي الله عنها في سبيل الدعوة، ولم يطلب من أحد لنفسه شيئًا. وهذا هو أبو بكر ﷺ من أقرب أصدقائه والذي كان يتهيأ لمرافقته في هجرته إلى المدينة، فأجر راحلة للنبي ﷺ، فأبى النبي ﷺ أن يركبها حتى يدفع ثمنها. في تلكم الظروف القاسية التي لا يفكر الإنسان فيها إلا في شيء واحد، هو مطاردة الأعداء له يفكر النبي ﷺ هكذا. ألا يدل ذلك على شدة تجرده وإخلاصه؟ إذ كيف يستطيع إنسان أن يفكر في مثل هذا الأمر الثانوي في ذلك الوقت العصيب. إن هذه الحادثة درس جيد لدعاة هذا العصر، ينبغي عليهم أن يعوها جيدا.

عن أبي هريرة ﷺ قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي جالسًا. فقلت: يا رسول الله أراك تصلي جالسًا فما أصابك؟ قال: "الجوع يا أبا هريرة." فبكيت فقال: "لا تبكِ، فإن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب." كان الجوع ضجيعه الذي لم يتركه أبدًا.

عن أبي هريرة ﷺ: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر. فقال: "ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟" قالا: الجوع يا رسول الله. قال: "وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما" أجل، الجوع... لقد أنفق ثلاثتهم كل ما يملكون في سبيل الله ولم يبق عندهم ما يسدون به رمقهم، وعندما عضهم الجوع لم يستطيعوا النوم وخرجوا إلى طرق المدينة.

هذه هي السواعد القوية التي حملت عبء الدعوة والتبليغ آنذاك. والدعوة الآن تحتاج إلى مثل هذه السواعد القوية لحملها ونشرها بين الناس.

وهذه هي ابنته فاطمة رضي الله عنها التي قال عنها رسول الله ﷺ "فاطمة بَضْعَة مني فمن أغضبها أغضبني" والتي كانت تقوم بأعمال البيت من نقل الماء وطحن الحبوب بنفسها إذ لم تكن لها خادمة تعينها على ذلك، حتى بدا الإرهاق عليها ووضح أثره في يديها وعلى كتفيها. وكان زوجها علي بن طالب ﷺ يأسى لهذا الأمر غير أنه لم يكن يملك شيئا حياله. ودامت هذه الحال طويلا، غير أنها لم تشتك، ذلك لأنها كانت تحمل خلق والدها، كما كانت أشبه الناس بوالدها في قيامها وقعودها ومشيتها.

وعندما أصاب المسلمون في إحدى المعارك غنائم وأسرى، وجلبت هذه الغنائم والأسرى إلى المدينة، ذهب كل من له حاجة إلى الرسول ﷺ فأعطاه ما تيسر له، فأشار علي ﷺ على فاطمة أن تذهب وتسأل النبي ﷺ أن يعطيها خادمًا يعينها. ولنستمع إلى الحادثة من علي ﷺ وهو يروي أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، فأتى النبيَّ ﷺ سَبْيٌ، فانطلقت فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبتُ لأقوم فقال: "على مكانكما." فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري. وقال: "ألا أُعلِّمكما خيرًا مما سألتماني، إذا أخذتما مضاجعكما تُكبّران ثلاثًا وثلاثين وثلاثين -وفي رواية أربعًا وثلاثين- وتُسبّحان ثلاثًا وثلاثين وتَحمدان ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم."

وها هو يرى يومًا عند فاطمةٍ رضي الله عنها سلسلة من ذهب فيقول لها: "يا فاطمة! أيغُرك أن يقول الناس ابنة رسول الله وفي يدها سلسلة من نار"، فأرسلت فاطمة بالسلسلة إلى السوق فباعتها واشترت بثمنها غلامًا فأعتقته. فحُدّث بذلك فقال: "الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار."

ومما تجدر ملاحظته في هذا الأساس الثالث أن رسول الله ﷺ إضافة إلى عدم انتظاره أي جزاء أو منفعة من أحد فإنه كان يتحمل مظاهر العدوان والأذى والخصومة من الآخرين. فكم من مرة حثَوْا على رأسه التراب فلم يسرع له سوى ابنته فاطمة. وكم من مرة دميت رجلاه من الأشواك التي كانوا يرمونها على طريقه. وفي إحدى المرات كان يصلي في الكعبة فتَجَمَّع عليه بعض المشركين وأراد أحدهم أن يخنقه بردائه خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم.

ولم تثن هذه الأفعال رسول الله ﷺ عن دعوته، لذا نراه يقول لابنته زينب وهي تبكي من أذى المشركين لوالدها: "يا بنية! لا تخشيْ على أبيكِ غيلةً ولا ذِلّة..." ولم يضيعه الله ولم يذله، بل جعل حبه أبديًّا في قلوب الملايين من أتباعه.

وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر نورد هنا كلمات حول الدعوة والتبليغ. لقد حاولنا حتى الآن أن نشرح أن الدعوة هي غاية وجود الأنبياء ووجود نبينا، فما خلقوا إلا للدعوة

والتبليغ. أما نحن فعند قيامنا بهذه المهمة مهمة الدعوة والتبليغ فإننا نقوم بها كوظيفة معينة ومهمة يجب تنفيذها ومسؤولية ينبغي أداؤها، ولكن الأنبياء يقومون بها لأنهم خلقوا لأجلها، فهي بذلك غاية وجودهم.

كما أننا عندما قمنا بتحليل هذا الموضوع حاولنا بيان كيفية أن الرسالة التي جاء بها رسول الله ﷺ مكتوب عليها "محمد رسول الله". كما قمنا ببيان الطرق والأساليب التي اتبعها في تبليغ رسالته هذه، وكيف أن هذه الأساليب دليل قائم بذاته حول نبوته ورسالته، وأشرنا إلى الطرق السليمة التي لا يتيه ولا يضل فيها الدعاة. فنحن على يقين تام بأنه إذا أريد النجاح الدائم الباقي فليس أمامنا إلا اتباع الطرق والأساليب التي اتبعها النبي ﷺ. وقد أثبتت آلاف من الحوادث استحالة النجاح والتوفيق بالطرق الأخرى. لذا، فإننا نؤكد مرة أخرى بأن على الدعاة الذين يريدون أن يكونوا هداة ومرشدين للناس أن يتبعوا الرسول محمدًا ﷺ. فهو المرشد الحقيقي. والطريق الذي خطه هو طريق الهداية الرشيدة، ذلك لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

بـــ- كان ﷺ مفطورًا على التبليغ

لقد كان التبليغ لدى سيد المرسلين فطرة وسجية. كانت نفسه تضيق عندما لا يجد قلبًا طاهرًا يبلّغه دعوته، مثلما نضيق نحن إن حُرِمْنا من الأكل والشرب أو عندما نحرم من تنفس الهواء. والحقيقة أنه ما كان يهتم بالأكل والشرب فقد كان يصوم أحيانًا صومًا متواصلاً. وكان يأكل أحيانًا ما يكفي لسد رمقه فقط وإبقائه حيا. فقد كان قلبه المفعم بآلام دعوته لم يدع لديه شهية للأكل. فكما تعيش الملائكة بالتسبيح كان رسولنا ﷺ يعيش بالدعوة. وعندما يجد أمامه صدرًا رحبًا وطاهرًا يفرح وينشط. والقرآن الكريم يصف وضعه هذا فيقول: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣). وفي آية أخرى يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦).

أجل، فلو رأى إنسانًا متمردًا على الله لا يسجد له، لتغلغل الألم في أعماق نفسه، وكان هذا الإنسان مبعث حزن عميق له. فكل إنسان خلا قلبُه من الإيمان كان مصدر حزن عاصف في قلبه. وقد كان هذا مستقرًا في أعماق روحه، وعندما بعث نبيًا ازداد عمقا.

ومع التسليم بكل أوامر الدين وتعليماته وسننه، نسمع هذا الجواب المليء بالمعاني من أحد تلاميذ الرسول ﷺ ممن حمَلوا آلام الأمة الإسلامية وآمالها في هذا العصر، إذ قال لمن سأله عن سبب عدم زواجه:

"إنني من كثرة تفكيري وانشغالي بآلام الأمة الإسلامية ومشاكلها لم أجد متسعًا من الوقت ولا فرصة للتفكير في الزواج." أجل، فهذا هو حال الأنبياء وورثة الأنبياء. وأنا أعتقد أن العالم بأسره ينتظر مثل هؤلاء الأشخاص الملتهبة قلوبهم بآلام الدعوة ومشاكلها.

وما دمنا وصلنا إلى هنا في هذا الموضوع، فإني أود ذكر مثال طالما كررته، لأن هذا المثال يكسب موضوعنا بُعدا آخر. فقد سكن أحد أصدقائنا الأطهار في إحدى الشقق في ألمانيا، واستطاع بروحه الطاهرة وبسلوكه النظيف -وبعون من الله تعالى- التأثير في نفوس أصحاب البيت وأصبح وسيلة لهدايتهم، فأسلم الأب أولاً ثم تبعته الزوجة ثم الأولاد وأصبح ذلك البيت قطعة من الجنة بالجو الذي أصبح سائدًا فيه. وفي أحد الأيام بينما كان صاحب البيت جالسًا مع هذا الصديق يتسامران إذ قال له صاحب البيت الذي بدأت أحاسيس الهداية ومشاعرها تهبّ على قلبه فتملأه سعادة:

"يا صديقي..! إنني أحبك... أحبك إلى درجة أتمنى معها أن أفتح قلبي وأضعك فيه، ذلك لأنك كنت وسيلة لهدايتي، وأكسبتني أنا وعائلتي حياة أبدية. ولكني غاضب منك في الوقت نفسه غضبًا شديدًا إلى درجة أنني أود لو أقوم فأضربك ضربًا مبرحا، وقد تسأل: لماذا؟ سأشرح لك الأمر، فقَبْل مجيئك بوقت قصير توفي والدي، مع أنه كان لائقًا لأن يكون مسلمًا أكثر منا. كان يملك روحًا صافيةً وعاش حياة نظيفة، فلو أتيت إلى هنا قبل وفاته لكنت وسيلة لهدايته، لذا فإنني غاضب منك غضبًا شديدًا لتأخرك في المجيء."

إن هذا العتاب يبدو مثل أنين من أوروبا... بل من الدنيا كلها... وأنا أخشى جدًّا من أن أُجَرَّ من ناصيتي وأحاسب على هذا... ذلك لأنني لم أستطع تبليغ رسالة الإسلام لهم بالمستوى اللائق.

جـــ- الحرص في تبليغ الدعوة

كان الرسول ﷺ حريصًا أشد الحرص في دعوته، إذ كان لا يريد أن يبقى شخص واحد لم تصل إليه دعوة الحق والحقيقة،

لذا كان شديد الحرص في تبليغ الناس ودعوتهم بالأسلوب الصحيح والمناسب. فانظروا مثلاً إليه وهو واقف على رأس عمه أبي طالب وهو على فراش الموت يعيش دقائقه الأخيرة.

لقد قام أبو طالب برعاية رسول الله ﷺ وحمايته مدة تقارب أربعين عامًا. وعندما قام النبي ﷺ بإعلان نبوته وجد مشركو مكة أبا طالب سدًّا بينهم وبينه لا يمكن اختراقه. وما كانوا يستطيعون الوصول إلى الرسول ﷺ إلا على جثة أبي طالب.

لقد رضي أبو طالب أن يتجرع كل الآلام ويتحمل جميع المصاعب والشدائد في سبيل حماية رسول الله ﷺ، وعلى رغم فقره وعمره المتقدم إلا أنه قد اضطر لتحمل مشاق الحصار والمقاطعة التي أعلنها مشركو قريش والتي استمرت ثلاث سنوات.

والآن أبو طالب متمدد على فراش الموت ورسول الله ﷺ واقف على رأسه يقول له كلما سنحت الفرصة: "أي عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله" غير أن أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية حالوا دون هداية أبي طالب وخلاصه، وقالا له: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ و لم يزالا يكلماه حتى قال آخر ما كلّمهم به: على ملة عبد المطلب... فقال رسول الله ﷺ: "لأستغفرَن لك ما لم أُنْهَ عنك." فنزلت آية منعته من الاستغفار له حيث ذكرت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة:١١٣).

لقد كان أبو بكر ﷺ أكثر الناس معرفة بمدى رغبة الرسول ﷺ في هداية أبي طالب. فبعد فتح مكة جاء بوالده الشيخ أبي قُحافة إلى رسول الله ﷺ ليصافحه معلنًا إسلامه، يقول ابن عباس ﷺ:

جاء أبو بكر بأبي قُحافة وهو شيخ قد عمي فقال رسول الله ﷺ: "ألاَ تركتَ الشيخَ حتى آتيه." قال: "أردتُ أن يأجره الله، والذي بعثك بالحق لأنا كنتُ أشدَّ فرحاً بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي ألتمس بذلك قرة عينك."

وكما كان الرسول ﷺ يرغب في هداية عمه أبي طالب، فإنه كان يرغب أيضاً في هداية "وحشي" قاتل عمه حمزة ﷺ. والتاريخ حفظ لنا قصة هذا الموضوع. ■

المصدر: النور الخالد، ص:١٤٤-١٥٥

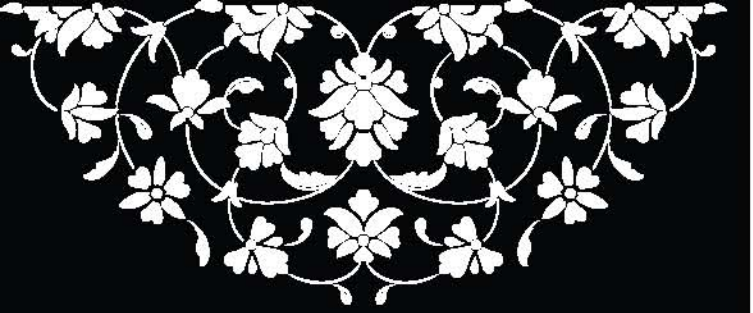

مفتاح العالم

لمولدك الشريف هلَّل الكون وابتهج،
وطربت الملائكة وزَهَتْ،
وتفتحت ورود الأرض والسماء،
وغرَّدت الأطيار، وأنشدت البلابل،
وسقطت الطلاسم،
وفُكَّت الألغاز،
وأصبحت الكائنات كتابًا مفتوحًا،
يقرؤه الأميّ والفيلسوف...

* * *

سورة التكاثر. مكتوبة على الجلد من قبل كتّاب الوحي في العهد النبوي / متحف طوب قابي - إسطنبول

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

قالو عن الرسول ﷺ

"يكفي محمداً [ﷺ] فخراً أنّه خلّص أمةً ذليلةً دَمَويةً من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريقَ الرُّقيّ والتقدم؛ وأنّ شريعةَ محمدٍ [ﷺ] ستسودُ العالم لانسجامها مع العقل والحكمة." **الأديب الروسي تولستوي**

"الحق أن النبي [ﷺ] لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحي إليه في غار حراء؛ فقضى حياة يعجب الإنسان بها. والحق أن عشرين سنة كفت لإعداد ما يقلب الدنيا.. فقد نبتت في رمال الحجاز الجديبة حبة سوف تجدد، عما قليل، بلاد العرب وتمتد أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلنطي." **إميل درمنغم مستشرق فرنسي، عن كتابه "حياة محمد"**

"أردتُ أن أعرف صفات ذلك الرجل [ﷺ] الذي ملَك بدون نزاع قلوب ملايين البشر.. لقد أصبحتُ مقتنعا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهّدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف." **مهاتما غاندي / محرر الهند**

"لا يمكن استيعاب شخصية محمد [ﷺ] بكل جوانبها. فهناك محمد النبي، ومحمد المحارب، ومحمد رجل الأعمال، ومحمد رجـــل السياسة، ومحمد الخطيب، ومحمد المصلح، ومحمد ملاذ اليتامى، وحامي العبيد، ومحمد محرر النساء، ومحمد القاضي... كل هذه الأدوار الرائعة في كل دروب الحياة الإنسانية تؤهله لأن يكون بطلا."

البروفسور رما كريشنا، عن كتابه "محمد النبي"

"إن طبيعة محمد [ﷺ] الدينية تُدهش كل باحث مدقّق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص. ولقد جهل كثير من الناس محمدًا [ﷺ] وبخسوه حقه؛ وإنه يمكن أن يعد من أعظم المحسنين للإنسانية لما قام به من إصلاح في الأخلاق وتطهير في المجتمع."

مونتيه، عن كتاب "محمد والقرآن"

"فلو أني أعلم أني أخـــلُـــص إليه [ﷺ] لتجشّمتُ لقاءه ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدميه" **(هرقل عظيم الروم، رواه البخاري في صحيحه)**

"إنّ رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجةً للجهل أو التعصّب، قد رسموا لدين محمد [ﷺ] صورةً قاتمةً، لقد كانوا يعتبرونه عدوًّا للمسيحية، لكنّني اطّلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبةً خارقةً، وتوصلت إلى أنّه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل يجب أنْ يسمّى منقذ البشرية، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العالم اليوم، لوفّق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمّن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها." **برناردشو، عن كتابه "محمد"**

صلاة جامعة

اَللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ بِعَدَدِ عِلْمِكَ وَبِعَدَدِ مَعْلُومَاتِكَ ۞

اَللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى إِخْوَانِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَعَلَى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلِ الْأَرَضِينَ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَعَلَيْنَا أَجْمَعِينَ، لَا سِيَّمَا عَلَى أَدَمَ وَإِدْرِيسَ وَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ وَإِسْمَاعِيلَ ذَبِيحِ اللهِ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَيُوسُفَ وَأَيُّوبَ وَشُعَيْبٍ وَمُوسَى كَلِيمِ اللهِ وَهَارُونَ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَيُونُسَ وَإِلْيَاسَ وَالْيَسَعَ وَذِي الْكِفْلِ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَأُمِّهِ مَرْيَمَ وَذِي الْقَرْنَيْنِ وَلُقْمَانَ وَعُزَيْرٍ، وَلَا سِيَّمَا عَلَى سَادَاتِنَا جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَعِزْرَائِيلَ وَعَلَى حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَالْكُرُوبِيِّينَ، وَعَلَى الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ، وَعَلَى سَادَاتِنَا خُلَفَاءِ النَّبِيِّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَعَلَى عَمَّيِ النَّبِيِّ حَمْزَةَ وَالْعَبَّاسِ، وَعَلَى أَحْفَادِهِ أَجْمَعِينَ لَا سِيَّمَا عَلَى الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَزَيْنِ الْعَابِدِينَ، وَعَلَى سَيِّدَاتِنَا خَدِيجَةَ الْكُبْرَى وَعَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ وَأَزْوَاجِهِ الْأُخَرِ، وَعَلَى بَنَاتِهِ زَيْنَبَ وَرُقَيَّةَ وَأُمِّ كُلْثُومٍ وَفَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ، وَعَلَى جَمِيعِ أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَعَلَى التَّابِعِينَ، وَعَلَى أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ، وَعَلَى الْمُجْتَهِدِينَ الْكِرَامِ وَالْمُفَسِّرِينَ الْعِظَامِ وَالْمُحَدِّثِينَ الْفِخَامِ، وَعَلَى الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَصْفِيَاءِ وَالْأَبْرَارِ وَالْمُقَرَّبِينَ، وَعَلَى الْأَقْطَابِ خُصُوصًا عَلَى سَادَاتِنَا عَلِيٍّ وَحَمْزَةَ وَالشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْكَيْلَانِيِّ وَالشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْخَرَقَانِيِّ وَالشَّيْخِ الْحَرَّانِيِّ وَالشَّيْخِ عَقِيلٍ الْمَنْجِيِّ وَالْإِمَامِ الرَّبَّانِيِّ وَالشَّيْخِ الْكَرْخِيِّ وَأَبِي الْحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ وَأَحْمَدَ الْبَدَوِيِّ وَأَحْمَدَ الرِّفَاعِيِّ وَمُحَمَّدٍ بَهَاءِ الدِّينِ النَّقْشَبَنْدِيِّ وَأُسْتَاذِنَا بَدِيعِ الزَّمَانِ سَعِيدِ النُّورْسِيِّ، وَعَلَى مَنْ لَهُ حُرْمَةٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، بِعَدَدِ عِلْمِكَ وَبِعَدَدِ مَعْلُومَاتِكَ أَصْلًا؛ وَعَلَى إِخْوَانِي وَأَصْدِقَائِي وَصَدَائِقِي وَأَحْبَابِي وَأَحِبَّائِي فِي كُلِّ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ فِي خِدْمَةِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ تَبَعًا ● آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة / مصر
تليفون وفاكس: 20222631551+ الهاتف الجوال: 20165523088+

تتبعْ آثاره ﷺ

امضِ خلف بصمات قدميه الشريفتين،
وإلا تهتَ في قِفار الحياة،
وابتلعتك صحارى الهلاك،
منفرداً لا تمش،
وعن آثار دليلك لا تنكص،
فسرْ حيث سار،
واجعل طريقه
لك طريقا..

* * *

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com